

# عبقريّة الإمام

عباس محمود العقاد

طبعة جديدة منقحة



اسم الكتاب: عرقية الإمام  
المؤلف: عباس محمود العقاد  
إشراف عام: داليا محمد إبراهيم  
تاريخ النشر: الطبعة الثامنة - أكتوبر 2006م  
رقم الإيداع: 10053 / 2003  
التوزيع الدولي: ISBN 977-14-2298-7

الإدارة العامة للنشر: 21 ش. أحمد عباس، المنزهين - الجيزة  
ت: 02346434 (02) 3472864 (02) فاكس: 023462576 ص. ب: 21 إجابة  
البريد الإلكتروني: الإدارة العامة للنشر: [Publishing@nahdetmisr.com](mailto:Publishing@nahdetmisr.com)

المطابع: 89 المنطقة الصناعية للرمسة - مدينة الصفاس من أكتوبر  
ت: 02334287 (02) - 02334288 - فاكس: 02334296 (02)  
البريد الإلكتروني للمطابع: [Press@nahdetmisr.com](mailto:Press@nahdetmisr.com)

مركز التوزيع الرئيسي: 18 ش. كامل صدقي - القهالة -  
القاهرة - ص. ب: 96 القهالة - القاهرة  
ت: 025999327 (02) - 025999395 - فاكس: 025993399 (02)

مركز خدمة العملاء الرقم المجاني: 08002226223  
البريد الإلكتروني لإدارة البيع: [Sales@nahdetmisr.com](mailto:Sales@nahdetmisr.com)

مركز التوزيع بالإسكندرية: 48 طريق الحرية (أوكس) -  
ت: 035442090 (03)

مركز التوزيع بالمتنزهة: 47 شارع عبد السلام - عارف  
ت: 02593673 (02)

موقع الشركة على الإنترنت: [www.nahdetmisr.com](http://www.nahdetmisr.com)  
موقع البيع على الإنترنت: [www.enahda.com](http://www.enahda.com)



تأسست لخدمة جمهورنا منذ سنة 1988

احصل على أي من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب/CD)  
وتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع [www.enahda.com](http://www.enahda.com)

جميع الحقوق محفوظة © شركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع  
لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية  
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر

## تقديم

فى كل ناحية من نواحي النفوس الإنسانية ملتقى بسيرة على بن أبى طالب رضوان الله عليه.

لأن هذه السيرة تخاطب الإنسان حينما اتجه إليه الخطاب البليغ من سير الأبطال والعظماء، وتثير فيه أقوى ما يثيره التاريخ البشرى من ضروب العطف ومواقع العبرة والتأمل.

فى سيرة ابن أبى طالب ملتقى بالعاطفة المشيوية والإحساس المتطلع إلى الرحمة والإكبار.. لأنه الشهيد أبو الشهداء، يجرى تاريخه وتاريخ أبنائه فى سلسلة طويلة من مصارع الجهاد والهزيمة، ويتراءون للمتتبع من بعيد واحدا بعد واحد شيوخا جللهم وقار الشيب ثم جللهم السيف الذى لا يرحم، أوفتيانا عولجوا وهم فى نضرة العمر يحال بينهم وبين متاع الحياة، بل يحال بينهم أحيانا وبين الزاد والماء، وهم على حياض العنية جياع ظماء.. وأوشك الألم لمصرعهم أن يصبغ ظواهر الكون بصبغتهم وصبغة دمائهم، حتى قال شاعر فيلسوف كآبى العلاء لا يظن به التشيع، بل ظنت بإسلامه الظنون:

وعلى الأفق من دماء الشهيد      ين على ونجله شامدان

قهما فى أواخر الليل فجرا      ن، وفى أولياته شفقان

وهذه غاية من امتزاج العاطفة بتلك السيرة قلما تبلغها فى سير الشهداء غاية، وكثيرا ما تتعطل إليها سرائر الأمم فى قصص الفداء التى عمرت بها تواريخ الأديان.

وفى سيرة ابن أبى طالب ملتقى بالخيال حيث تحلق الشاعرية الإنسانية فى الأجواء أو تغوص فى الأغوار.. فهو الشجاع الذى نزعته به الشاعرية الإنسانية منزع الحقيقة ومنزع التخيل، واشترك فى تعظيمه شهود العيان وعشاق الأعاجيب.. ألم يحارب المردة فى قلاوئها.. ألم يخلق له الرواة أندادا من

المناجزين والمبارزين لم يخلقهم الله... ألم يستصغر عليه المحيون الغالون في الحب أن يصرع من عرفنا من خصومه فأنشئوا له من الخصوم المغلوبيين من لم يعرفهم ولم يعرفوه؟... ألم يوشك من وصفه ووصفوا ونعاته وفنكاته أن يلحقوه بأبطال الأساطير وهو هو أصدق الأبطال في أصدق مجال.

وتلتقى سيرته - عليه رضوان الله - بالفكر كما تلتقى بالخيال والعاطفة؛ لأنه صاحب آراء في التصرف والشرعية والأخلاق سبقت جميع الآراء في الثقافة الإسلامية. ولأنه أحجى الخلقاء الراشدين أن يعد من أصحاب المذاهب الحكيمة بين حكماء العصور، ولأنه أوتي من الذكاء ما هو أشبه بذكاء الباحثين المتقبين منه بذكاء الساسة المتغلبين، فهو الذكاء الذي تحسه في الفكرة والخاطرة قبل أن تجسه في نتيجة العمل ومجرى الأمور.

وللذوق الأدبي - أو الذوق الفني - ملتقى بسيرته كملتقى الفكر والخيال والعاطفة؛ لأنه رضوان الله عليه كان أدبياً يلغا له نهج من الأدب والبلاغة يقتدى به المقتدون، وقسط من الذوق مطبوع يحمده المتذوقون، وإن تطاولت بينه وبينهم السنون، فهو الحكيم الأديب، والخطيب المبين، والمتشئ الذي يتصل إنشائه بالعربية ما اتصلت آيات النافرين والناظمين..

وللنفس الإنسانية نواحيها الكثيرة غير نواحي العطف والتخيل والتفكير، وتذوق الحسن الجميل من التعيين.

فمن نواحيها الكثيرة ناحية لم تنقطع قط في زمن من الأزمان، وهي ناحية الخلاف بين الطبائع والأذهان، أو ناحية الخصومة الناشئة أبداً على رأى من الآراء، أو حق من الحقوق، أو وطن من الأوطان.

فقد يفتر العقل والذوق بعض حين، وقد يفتر الخيال والعاطفة بعض حين، ولكن الذي لم يفتر قط ولا تخاله يفتر في حين من الأحيان خصام العقول وجدل الألسنة واختلاف المختلفين وتشجيع المتشيعين.

وإن ها هنا للمجال الرغيب والملتقى القريب في سيرة هذا الإمام الأوحد التي لا تشبهها سيرة في هذه الخاصة بين شتى الخواص، وهو رضوان الله عليه قد قال في ذلك أرجز مقال حين قال:

«ليحبني أقوام حتى يدخلوا النار في حبي، ويبغضني أقوام حتى يدخلوا النار في بغضي»، أو حين قال: «يهلك في رجلان: محب مفرط بما ليس في ومبغض يحمله شتاتى على أن يبهتني».

وصدق الإمام الكريم في غلو الطرفين من محبيه ومن مبغضيه، فقد بلغ من حب بعضهم إياه أن رفعوه إلى مرتبة الآلهة المعبودين، وبلغ من كراهة بعضهم إياه أن حكموا عليه بالمروق من الدين؛ هذا الرواقص الغلاة يعبدونه وينهاهم عن عبادته فلا يطيعونه، ويستتيبهم فيصرون على الكفر أي إصرار، ويأمر بإحراقهم فيقولون وهم يساقون إلى الحفيرة الموقدة: إنه الله وإنه هو الذي يعذب بالنار.. وهناك الخوارج الغلاة يعلنون كفره ويطلبون منه التوبة إلى الله عن عصيانه، ويسبونه على المنابر كما سبه خصومه الأمويون الذين خالفوهم في العقيدة ووافقوهم على السباب..

ميدان من ميادين الملاحاة لم يتسع قط ميدان متسعه في تواريخ الأبطال المعرضين للحب والبغضاء: يقول أناس: إله. ويقول أناس: كافر مطرود من رحمة الله..

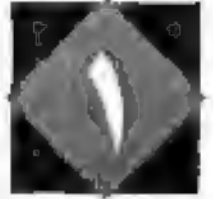
وناحية أخرى من نواحي النفس الكثيرة تلاقيها سيرة الإمام في أكثر من طريق: وتلك هي ناحية الشكوى والتمرد أو ناحية الشوق إلى التجديد والإصلاح.. فقد أصبح اسم علي علماً يلتف به كل مقصوب، وصيحة ينادي بها كل طالب إنصاف، وقامت باسمه الدول بعد موته؛ لأنه لم تقم له دولة في حياته. وجعل الغاضبون على كل مجتمع باغ، وكل حكومة جائرة يلوذون بالدعوة العلوية كأنها الدعوة المرادفة لكلمة الإصلاح، أو كأنها المنفس الذي يستروح إليه كل مكظوم.. نحن نازع في رأي، فقي اسم علي شقاء لخوارج نفسه، ومن ثار على ضيم فقي اسم علي حافز لثورته ومرضاة لغضبه، ومن واجه التاريخ العربي بالعقل أو بالذوق أو بالخيال أو بالعاطفة فهناك ملتقى بينه وبين علي في وجه من وجوهه، وعلى حالة من حالاته. وتلك هي المزية التي انفرد بها تاريخ الإمام بين تواريخ الأئمة الخلفاء، فأصبحت بينه وبين قلوب الناس وشائج تخلقها الطبيعة الأدمية إن قصر في خلقها التاريخ والمؤرخون.

وكل ملتقى من هذه الملتقيات يدع الكاتب في حذر ما بعده من حذر لأن اشتباك العوامل النفسية يزيد صعوبة الباحث عن نفس من النفوس، ولا ينقصها أو ينول بها إلى البساطة والوضوح، وكلما قلت هذه العوامل وانحصرت في ناحية من النواحي سهل الخلوص إلى مقطع الحق فيها، فالبطل الذي يلتقى بالفكر وحده أسهل من البطل الذي يلتقى بالفكر والعاطفة، وإن هذا الأسهل من الذي يلتقى بالفكر والعاطفة والخيال، وكل أولئك أسهل ممن يلتقى في ألف سنة متوالية بدخائل النفوس جميعا من طموح إلى المثل الأعلى، أو حرص على الملاحاة، أو شغف بالبلاغة أو رياضة على التقوى، مزيدا على التخيل والشعور والتفكير.

لهذا تعلم غير مترددين في علمنا أن واجهنا في «عبقرية الإمام» مرسوم للغاية والطريق، وهو واجب التبسيط والقصد إلى الخطة الوسطى، وفي علمنا بهذا بعض التيسير، وإن لم يكن فيه كل التيسير، نرجع «بعبقرية الإمام» إلى الحقيقة الوسطى.

نرجع من عشرين طريقا إلى بداية واحدة؛ لأن الطريق الواحدة لا تؤدي إليها أقرب أداء. وحسبنا أننا عرفنا ضرورة الرجوع من كل هذه الطرق إلى تلك البداية المقصودة فعلى بركة الله.

عباس محمود العقاد



## صفاته

المشهور عن علي كرم الله وجهه أنه كان أول هاشمي من أبيوين هاشميين.. فاجتمعت له خلاصة الصفات التي اشتهرت بها هذه الأسرة الكريمة وتقاربت سماتها وملامحها في كثير من أعلامها المقدمين، وهي في جملتها النبل والأيد والشجاعة والمروءة والذكاء، عدا المأثور في سماتها الجسدية التي تلاقحت أو تقاربت في عدة من أولئك الأعلام.

فهو ابن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف.

وقيل: إن اسمه الذي اختارته له أمه: حيدرة باسم أبيها أسد، والحيدرة هو الأسد.. ثم غيره أبوه فسماه عليا وبه عرف واشتهر بعد ذلك..

وكان علي أصغر أبناء أبيه، وأكبر منه جعفر وعقيل وطالب، وبين كل منهم وأخيه عشر سنين.

قيل: إن عقيلًا كان أحب هؤلاء الإخوة إلى أبيه، فلما أصاب القحط قريشًا وأهاب رسول الله عليه السلام بعميه حمزة والعباس أن يحملوا ثقل أبي طالب في تلك الأزمة جاءوه وسألوه أن يدفع إليهم ولده ليكفروه أمرهم، فقال: دعوا عقيلًا ويخذوا من شئتم. فأخذ العباس طالبًا وأخذ حمزة جعفرًا وأخذ النبي عليه السلام عليًا كما هو مشهور. فعوضه إيتار النبي بالحبيب عن إيتار أبيه، ولكنه عرف هذا الإيتار في طفولته الأولى فكان سابقة باقية الأثر في نفسه على ما يبدو من أطوار حياته التالية، وجاءت لهذه السابقة لواحقها الكثيرة على توقع واستعداد فتعود ألا يفوته الحق والتفضيل وهو يدرج في صباه.

وربما صبح من أوصاف علي في طفولته أنه كان طفلًا مبكر النماء سابقًا لأندابه في الفهم والقدرة: لأنه أدرك في السادسة أو السابعة من عمره شيئًا من الدعوة النبوية التي يدق فهمها والتقنب لها على من كان في مثل هذه السن



المبكرة فكانت له مزايا التكبير في السماء كما كانت له أعباؤه ومتاعبه التي تلازم أكثر المبكرين، ولا سيما الحولودين منهم في شيخوخة الآباء.

ونشأ رضى الله عنه رجلاً مكين البنيان في الشباب والكهولة، حافظاً لتكوينه المكين حتى تاهز الستين..

قال واصفوه وهو في تمام الرجولة: إنه كان رضى الله عنه ربيعة أعيل إلى القصر، آدم - أى أسمر - بشديد الأنمة، أصلع مبيض الرأس والمحية طويلها، ثقل العينين في دمع وسعة، حسن الوجه وأضح البشاشة، أغيد كأنما عنقه إبريق فضة، عريض المنكبين لهما مشاش كمشاش<sup>(١)</sup> السبع الضاري لا يتبين عضده من ساعده قد أدسجت إدماجاً. وكان أيجر - أى كبير البطن - يعيل إلى السمعة في غير إفراط، ضخم عضلة الساق دقيق مستدقها، ضخم عضلة الذراع دقيق مستدقها، شثن الكفين، يتكفأ في مشيته على تحويقارب مشية النبى، ويقدم في الحرب فيقدم مهزولاً لا يلوى على شيء.

وتدل أخباره - كما تدل صفاته - على قوة جسدية بالغة في المكانة والصلابة على العوارض والآفات. فربما رفع الفارس بيده فجلد به الأرض غير جاهد ولا حافل، ويمسك بذراع الرجل فكأنه أمسك بنفسه فلا يستطيع أن يتنفس، واشتهر عنه أنه لم يصارع أحداً إلا صرعه، ولم يبارز أحداً إلا قتله، وقد يزحزح الحجر الضخم لا يزحزحه إلا رجال، ويحمل الباب الكبير يعبى بقلبه الأشداء، ويصيح الصيحة فتتخلع لها قلوب الشجعان.

ومن مكانة تركيبه رضى الله عنه أنه كان لا يبالي بالحر والبرد، ولا يحفل بالطوارئ الجوية في صيف ولا شتاء، فكان يلبس ثياب الصيف في الشتاء وثياب الشتاء في الصيف، وسئل في ذلك فقال: «إن رسول الله ﷺ يبعث إلى وأنا أرمد العين يوم خيبر، فقلت: يا رسول الله: إني أرمد العين. فقال: اللهم أذهب عنه الحر والبرد» فما وجدت حراً ولا برداً منذ يومئذ...»

\* \* \*

(١) المشاش: رأس للعظم.



ولا يفهم من هذا أنه رضوان الله عليه كان معدوم الحس بالحر والبرد بالغاً ما بلغت بهما المساواة والإيذاء. فقد كان يرعد للبرد إذا أشد ولم يتخذ له عدة من دثار يقيه. قال هرون بن عنترة عن أبيه: دخلت على عليّ بالخورنق وهو في فصل شتاء وعليه خلق قطيفة وهو يرعد فيه. فقلت: يا أمير المؤمنين، إن الله قد جعل لك ولأهلك في هذا المال نصيباً وأنت تفعل هذا بنفسك؟ فقال: والله ما أرزؤكم شيئاً، وما هي إلا قطيفتي التي أخرجتها من المدينة.

فليس هو انعدام حس بالصيف والشتاء، إنما هي مناعة قوية خصت بها بقيقه، لم يخص بها معظم الناس.

وكان إلى قوته البالغة، شجاعاً لا ينهض له أحد في ميدان مناجزة، فكان لجراته على الموت لا يهاب قرناً من الأقران بالغاً ما بلغ من الصولة ورهبة الصيت، واجترأ وهو فتى ناشئ على عمرو بن ود فارس الجزيرة العربية الذي كان يقوم بألف رجل عند أصحابه وعند أعدائه، وكانت وقعة الخندق فخرج عمرو مقنعا في الحديد يتنادى جيش المسلمين: من يبارز؟ فصاح عليّ: أنا له يا نبي الله.. قال النبي وبه إشفاق عليه: إنه عمرو. اجلس.. ثم عاد عمرو يتنادى: ألا رجل يبرز؟ وجعل يؤتبههم قائلاً: أين جنتكم التي زعمتم أنكم داخلوها إن قتلتم؟ أقلاً تبرزون إلى رجلاً؟.. فقام على مرة بعد مرة وهو يقول: أنا له يا رسول الله، ورسول الله يقول له مرة بعد مرة: اجلس، إنه عمرو، وهو يجيبه: وإن كان عمراً. حتى أذن له فمشى إليه فرحاً بهذا الإذن الممنوع كأنه الإذن بالخلاص.. ثم نظر إليه عمرو فاستصغره وأنف أن يتاجره وأقبل يسأله: من أنت؟ قال ولم يزد: أنا علي. قال ابن عبد مناف؟ قال ابن أبي طالب. فأقبل عمرو عليه يقول: يا ابن أخي.. من أعمامك من هو أسن، وإنني أكره أن أهريق دمك، فقال له علي: لكنني والله لا أكره أن أهريق دمك. فغض عمرو وأهوى إليه بحيف كان كما قال واصفوه كأنه شعلة نار، واستقبل على الضربة يدرقته ففقدوها السيف وأصاب رأسه، ثم ضربه على حبل عاتقه فسقط ونهض، وسقط ونهض، وثار الغبار، فما انجلى إلا عن عمرو صريعاً وعليّ يجأر بالتكبير.

وكانما كانت شجاعته هذه القضاء الحتم الذي لا يؤسى على مصابه؛ لأنه أحصى المصائب وأقلها معابة ألا يدفع. فكانت أخت عمرو بن ود تقول على سبيل التأسى بعد موته:

لو كان قاتل عمرو غير قاتله  
بكيفه أبدا ما دمت في الأبد  
لكن قاتله من لا نظيره  
وكان يدعى أسوه بيضة البلد

• • •

فكانت شجاعته من الشجاعات النادرة التي يشرف بها من يصيب بها ومن يصاب..

ويزيدها تشريفا أنها أردانت بأجمل الصفات التي تزين شجاعة الشجعان الأقوياء.. فلا يعرف الناس حلية للشجاعة أجمل من تلك الصفات التي طبع عليها على بغير كلفة ولا مجاهدة رأى.. وهي التورع عن البغى، والعروة مع الخصم قويا أو ضعيفا على السواء، وسلامة الصدر من الضغن على العدو بعد الفراغ من القتال.

فمن تورعه عن البغى، مع قوته البالغة وشجاعته النادرة، أنه لم يبدأ أحدا قط بقتال وله مندوحة عنه، وكان يقول لابنه الحسن: «لا تدعون إلى مبارزة. فإن الداعي إليها باغ والباغى مصروع».

وعلم أن جنود الخوارج يفارقون عسكره ليحاربوه، وقيل له: إنهم خارجون عليك فبادرهم قبل أن يبادروك، فقال: «لا أقاتلهم حتى يقاتلوني. وسيفعلون!..» وكذلك فعل قبل وقعة الجمل، وقبل وقعة صفين، وقبل كل وقعة صغرت أو كبرت ووضح فيها عدااء العدو أو غمض: يدعروهم إلى السلم وينهى رجاله عن المبادأة بالشر، فما رفع يده بالسيف قط إلا وقد بسطها قبل ذلك للسلم.

كان يعظ قوما فبهرت عظته بعض الخوارج الذين يكفرونه فصاح معجبا إعجاب الكاره الذي لا يملك بغضه ولا إعجابه: قاتله الله كاقرا ما أفقهه.. فوثب أتباعه ليقتلوه، فنهاهم عنه، وهو يقول: إنما هو سب يسب أو عقو عن ذنب.

وقد رأينا أنه قال لعمر بن ورد: إني لا أكره أن أهريق دمك.. ولكنه على هذا لم يرغب في إهراق دمه إلا بعد يأس من إسلامه ومن تركه حرب المسلمين.. فعرض

عليه أن يكف عن القتل فأبى، ومن إن تحدث العرب بفرارى، وباشده ب عمرو إنك كنت نعاهد قومك ألا يدعوك رجل من قريش إلى خليين إلا أخذت منه جدهما قبل أن قال، فبني أروعك إلى الإسلام أو إلى الدال قال ولم ي ب أخى؟ فقال له ما أحب أن أوفك فلم يكن له بد بعد ذلك من إحدى اتين أن يقتله أو يقتل على يديه

وعلى ما كان بينه وبين معاوية وحبوده من اللد في العدا لم يكن يدربهم ولا يأخذ من ثارته وثارات أصحابه عندهم إلا بمقدار ما استحقوه في موقف الساعة فاتفق في يوم صعب أن خرج من أصحاب معاوية رجل يسمى كريب بن الصباح لحميري فصاح بين الصقيين من يبارز فخرج إليه رجل من أصحاب على فقتله ووقف عليه وبأى من يبارز فخرج إليه آخر فقتله ولقاء على لأول، ثم بأى من يبارز فخرج إليه الثالث فصنع به صيعة بصاحبيه، ثم بأى رابعة من يبارز فأحجم الناس ورجع من كن في الصف الأول إلى الصف لى ييه، وخاف على أن يشبع الرعب بين صفوفه فخرج إلى ذلك الرجل المدى بشجاعته وبأسه فصرعه، ثم بأى بداءه حتى اتم ثلاثة صنع بهم صيعة بأصحابه، ثم قال مسمعا الصوف ي أيها الناس إن الله عز وجل يقول ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصص﴾، وبولم تبدوا ما بدأناكم ثم رجع إلى مكانه

أما مروته في هذا الباب فكانت أندر بين دوى المروعة من شجاعة بين السحار، فأبى على حده وهم باقمون أن يقتلوا مدبرا أو يحجروا على حريق أو يكشعوا سقرا أو يأخسوا مالا، وصلى في وقعة الحمل على القنلى من أصحابه ومن أعدائه على السواء وظفر بعبد له بن الربير ومروى بن الحكم وسعد بن العاص وهم ألد أعدائه الموليين عليه فعف عنهم ولم يتعقبهم بسوء، وظفر بعمرو بن العاص وهو أخطر عليه من جيش ذى عدة فأعرض عنه وتركه يسبح بحياته حين كشف عن سواته اتقاء لصربه وحال حب معاوية بينه وبين اسماء في معركة صقيين وهم يقولون له ولا تطرأ حتى تموت عطش فلما حمل عليهم وأحلاهم عنه سوع لهم أن يشربوا منه كما يشرب حننه ورا لسيدة عائشة بعد وقعة الحن فصاحت به صفيه أم طلحة الطلحات ابنت الله منك أولادك كما أيتب

أولادى فلم يرد عيها شين، ثم خرج فأعاد عليا ما استقبلته به فسكت ولم يرد عليها قال رجل اعصيه مقالها يا أمير المؤمنين أتسكت عن هذه المرأة وهي تقول يا سمع؟ فانتهره وهو يقول ويحكم؟ إيا أمرا أن يكف عن النساء وهن مشركات أهلا يكف عنهن وهن مسلمات؟ وبه لقي طريقه إذ أخبره بعض أتباعه عن رجلين يبالان من عدائته فامر بحصدهما منه جلده ثم ودع السيدة عائشة أكرم وداع وسار في ركابها أميالا وأرس معها من بعدهما ويحف بها قيل إنه أرس معها عشرين مرة مر بساء عبد القيس عمنهن بالعصائم وقتلهن بالسيف، فما كانت ببعض الطريق ذكرت بها لا يجوز أن يذكر به وبأهنت وعالت هتك سترى برحاله وحده الدين وكلهم بي فلم وصلت إلى المدينة ألقى النساء عمائمهن وقلن لها إنما نحن نسوة

وكانت هذه المروءة ستة مع حصومه من استحق منهم الكرامة ومن لم يستحقها، ومن كان في حرمة عائشة رضى الله عنها ومن لم تكن به قط حرمة، وهي أندر مروءة عرفت من مقاتل في وعز القتال.

وتعديها في اسير والشره سلامة صدره من الضعن على أعدى الناس له وأصرهم به وأشهرهم بالصغر عليه فهي أهـ وصحبه أن يمثلوا بقاتله وأن يعتلوا أحدا غيره، ورثى صفة الذي خلع بمعته وجمع الجموع بحربه رثاء محروين بغص كلامه بالألم والمودة، وأوصى أتباعه ألا يقتلوا الخوارج الذين شقو صفوفه وأفسدوا علمه أمره وكبر شرا عليه من معاونة وحده، لأنه رآهم مخلصين وإن كانوا مخطئين وعلى خطئهم مصرين

~ ~ ~

وتقترب بالشجاعة. ولا سيما شجاعة العروس الحقاتلين بأيديهم. صفة لازمة بها متممة لعملها فيما تنعص عنها وكأنها والشجاعة أشبه شيء بالنصح للنساء، أو بالإشعاع للنور، فلا تكون شجاعه أفروسة إلا كانت معها تلك الصفة التي تشير إليها وهي صفة «الثقة» أو «الاعتزاز» والإسراع بالهيبه والتهويل على الحصوم ولا سيما في مواقف الدراة وقد يسميها بعض الناس رهوا وليست هي به ولا هي من معدنه وسفته، وإن شابهته في بعض الملامح والألوان

فأمره هو المدموم فصول لا لزوم له ولا خير فيه، وهو لون خادع قد يوحد مع الصنف كما يوحد مع القوة وقد يبدو على انجبار كما يبدو على الشجاع

أما هذا الاعتزاز الذي يشير إليه، أو هذه لثغة التي تظهر لنا في صورة الاعتزاز، فهي جزء من شجاعة الفارس المقاتل لا يستعنى عنه ولا يراى متصلاً بعمله في مواجهة خصومه، وهو عرض للقوة يساعد الفارس في إرهاب عدوه وإضعاف عزيمة من يتصدى لحربه. مثله هنا كمثل العروس التي تعتمد إليها الحيوش لإعلان بأسها وتحوير لأعداء من الاستخفاف بها وإنهجوم عليها فهو كالشجاعة أداة ضرورية من أدوات القتال لا تفصل عنها، وليس كل ما فيها صرياً من انخلاء يرضى به السجاع عرويه ويتقيه به في غير حاجة إلى النجاة

وبهذا تحمس الناس للفخر العسكري من قديم الزمن، عهدوه وتحدثوا به وتداولوه، فسمحوا للفارس - بل لعلهم وحبوا عنه - أن يروع من خصمه بالفخر لمرعب إذ يتقدم لمرأله، وأن يلاقبه وهو يشد الأشعار في ذكر وقعاته وإنهويين بصرياته والإشدة بغرواته، وعصموا أنفسهم - وقد احتاجوا إلى شجاعته - محتاجون كذلك إلى فخره وحماسته ويقاع الرعب في جوار قربه، فشاعب قصائد الفخر والحماسة كما شاعت قصائد الحب والمناجاة وهي أحب القصائد إلى نفوس

• • •

ومن تأصل هذه العادة في الطبائع أنها شاهدة في جميع لأحياء فطره وربحالا يغير اصطلاح ولا يعمد، فلا يرى حيا من الأحياء الباطنة أو العجماء ينزل قريبا به إلا حاول ما استطاع أن يهوله بمكبير حجمه وسطالة قدره واسمير بطره وينفض ريشه أو شعره ويقف الإنسان مثل هذا الموقف فيطيل قامته ويمبر صدره وشدق يده عنه ويقول بلسن حاله ما يقاس باللسان هيرا هو الفخر والحماسة، وإذا هو عنوان الثقة والإقدام

هذه انصفة لازمة لفارس الميدان ولا سيما فرسان العصور الأولى الذين يقفون بقتال وحيا بوحه، وينظر أحدهم إلى قربه وهو يهجم عليه

وكانت هذه الصفة من صفات على رضى الله عنه، يفهمها من يريد أن يفهم ولا يصيق صدر بفصله وينكرها من بنفس عليه فيسميها انزها أو يسميها

الحقوة والخيلاء قال له هيس بن سعد بعد عروبه من ولايه مصر إنك والله ما عنيت  
لتنظر الخيلاء ومرا الزبير بن العوام مع رسول الله في بني غنيم، فرأى رسول الله  
عليه علي مقربة منه فصحك له وصحك علي يحييه فقال الزبير لا يدع ابن أبي  
طالب زهوه قل رسول الله إنه ليس به رهو، ولتقتله وأنت به طالم

فليس هو بالزهو المكروه، وبكبه الشجاعة التي محتلى بها الشجاع واثقة  
التي تتراءى مكشوفة في صراحتها واستقامتها، لأن صاحبها لم يتكلف مداراتها  
ولم يحس أنه يحتاج إلى مداراتها، ولأنه لا يقصدها ولا يعتمد إبداءها

\* \* \*

وقد كان مدار هذا الخلق في ابن أبي طالب على ثمة أصيلة فيه لم يفارقه منذ  
حبا ودرج، وقبل أن يبلغ مبلغ لرحا من مدعته الطغوية الياكرة يوما أن يعلم  
أنه شيء في هذه الدنيا وأنه قوة لها حوار يركن إليه المستجير وبعد كان في  
العاشرة أو نحوها يوم أحاط القروم القرشيين بالنبي عليه السلام بسروبه  
ويتكروبه وهو يقب عيبه في وحوهم ويسأل عن النصير ولا نصير بو كان  
يعلى أن يرتاع في مقدم نحصه أو مقام عريمه لارتاع يومئذ بين أولئك لشيوخ  
الدين رفعتهم ألواحاه ورفعتهم أدا القبيلة البسوية إلى مقام الحشية والحشوع،  
وبك كان عليا في تلك السن الباكرة كما كان عليا وهو في الخمسين أو الستين  
مع نريد وهم مستهزنون أن يصبح صبيحه الواصل العصبوب أنا نصيرك  
فصحكوا منه صحك الجهن والاستكبار وعلم انقدر وحده في تلك اللحظة أن ما يبد  
ذلك الغلام أعظم وأقوم من حرب أولئك القروم

عنى هذا هو الذي نام في فراش النبي ليلة الهجرة، وقد علم قاتمه به مكة كلها  
من قتل الراقد على ملك الفراش

وعلى هذا هو الذي تصدى لعمر بن ود مرة بعد مرة والنبي يحسه ويحذره  
الغاقية التي حذرها فرسان العرب من غير تصدير، يقول النبي احس إنك عمرو  
فيقول وإن كان عمرا كانه لا يعرف من يحاف ولا يعرف كيف يخاف، ولا  
يعرف إلا استجاعة النبي هو محتلى بها واثق منها في غير كلفه ولا اكترات

ونمكث هذه الثقة فيه لطول مراس العروسية التي هي كما أسلفنا جزء منها  
وأداة من أدواتها

ورادها تمكيناً حسد الحاسرين وبحاجة المنكرين، وكلاهما خَلِيقُ ان يعصم  
المراء منه يثق لا تتحدل وأبعة لا تلبس فمن شواهد هذه الثقة بنفسه أنه حمل  
من ميدان الشجاعة إلى ميدان العزم والرأي حين كان يقول: «سألوني قبل أن  
تفقدوني، فوالدي نفسي بيده لا تسألوني في شيء فيما بينكم وبين الساعة، ولا  
عن فئة تهدي مائة وتضنّ مائه إلا أنيأتكم بساعقها وقائدها وسائقها، ومندح  
ركابها ومحط رحالها»

ومن شواهدا أنه كان يقول والخارجون عليه يرحمونه بالمروق «ما أعرف  
أحدا من هذه الأمة عبد الله بعد نبينا غيري، عيذ الله قيل أن يعيده أحد من هذه  
الأمة تسع سنين»

وراده اتهام من حوله معتصما بالثقة بنفسه، فلما عتب عليه خصماه طلحة  
والربيع أنه ترك مشورتها قال «نظرت إلى كتاب الله وما وضع لنا وأمرت  
بالحكم به فاتبعته وما استن النبي ﷺ فابتدئته فلم أحتج في ذلك إلى رأيكم  
ولا رأي غيركم، ولا وقع حكم جهته فأستشيركم وإخواني المسلمين، ولو كان  
ذلك لم أرغب عنكم ولا عن غيركم»

وأبدى هذه العليقة منه أنه كان رضى الله عنه لا يتكلف ولا يحتال على أن  
يتألف، من كان يقول «شر الإخوان من تكلف له» ويقول «إذا احتشم المؤمن أخاه  
فقد فارقه» فكان الدين ينتظرون منه الاصطباع والارضاء يخطئون ما انتظروه،  
ولا سيما إذ هم انتظروه من أرواق رعياء وحقوقهم لتى اؤتمن إليها فيحسبون  
أنها الجفوة البينة وأنه الرهو المقصود وما هو بهذا ولا بتلك إنما هي شجاعة  
الغارس بدوار مه التى لا تفصل منها، وإنما هو امتعاض الصعوط المسىء ظ  
يمن حوبه بتراهى على سحيته فى غير مداراة ولا رياء هم كان يتكلف إظهار تلك  
الخلائق رهوا كم يسحوبه أو جفوة كما يحسبونها، من كان قصصه ألا يتكلف  
الإخفاء فإذا التفت قدصده إلى ما فى نفسه فهو لا يعصد لعجب ولا يرصاد، من  
يمهى عنه ويشدد فى اجتنابه، ويوصى من حد «إياك ولإعجاب بنفسك وثقة  
بما يعجبك منها» «واعلم أنه الإعجاب صد الصواب، وامة الألباب»

بعم كان ملاك الأمر فى أخلاق على عليه السلام أنه كان لا يتكلف إظهار شيء  
ولا يتكلف إخفاء شيء ولا يقبل التكلف حتى من مراحيه، فربما أهرط الرجل فى



اشياء عليه وهو منهم عنده فلا يدعه حتى يعرض به طويته ويقول له «أنا ومن ما  
تعاون فوق ما هي نفسك»

• • •

وكاتب مئة التكيف هذه توافق منه خليفته الكبرى من الشجاعة والياس  
والاملاء بالثقة والصحة وكاتب تسلك معه مسك الحقيقة والمجد على السواء  
كأنه بمعنى ما يصنع وهو لا يعنيه، وربما يحىء منه على السهبة كما تحىء  
الاشياء من معادنها كان مثلاً يخرج الى مسارره حاسر الرأس ومبارروه  
مقبعون بالصيد أفحيت منه أن يخرج إنهم حاسر النفس وهم مقبعون بالصبغة  
والرياء<sup>٥</sup> وكان يعرف الحساب أحياء ويرسل الشيب باصبع وهو لا يحرم  
خصائه في غير ذلك من الأحياء أفحيت منه، مع هذا، أن يقل أكثره نكل  
حساب سائراً ما سقى أو كاشعاً ما كشف، من رأى وخليفة<sup>٦</sup>

من كانت هله استكف هذه توافق منه خليفه أخرى كالشجاعة في موتها  
ورسوخها أو هي قريبة لشجاعة في نفس انفرس البيل رقلت تفردتها وبغى  
بها خليفه الصديق الصراح الذي يحتري به ارجح على الصر واللاء كما يحتري  
به على المنفعة والنعماء فما استطاع احد قط أن يحصى عليه كلمة خلاف فيها  
الحق الصراح في سلمه وحرية، وبين صحبه أو بين أعدائه، ولعله كن أحوج إلى  
لحصانة بين البصراء مما كان بين الأعداء لأنهم رهقوه باللجاجة وأعتوه  
بالحلاف فم عدا معهم قوى الصدى في شدد ولا رخاء حتى هال منه أقرب  
الناس إليه إنه ربح يعرف من الحرب شجاعته ولكنه لا يعرف خدعته وكان  
أبداً عند قوله «علامة الايمان أن يؤثر الصديق حيث يصرك على انكسار حيث  
ينفعك، وألا يكون في حديثك فصل على غمك، وإن يدعى اليه في حديث غيرك»

• • •

وصديق هي تفره وإيمانه كما صدق في عمل يمينه ومقانه بسابه، فلم يعرف أحد  
من الخلفاء أزهده منه في لذة دنيا أو سبب دولة، وكان وهو أمير للمؤمنين يأكل  
الشعير وتطبخه امرأته بيديها، وكان يحتم على الحرب الذي فيه دقيق الشعير فيقول  
«لا أحب أن يدخل بطني ما لا أعم» قال عمر بن عبد العزيز وهو من أسرة أمية التي

تبصر علناً ونحقيق له السمات وتحقق ما توافر له من الحساب «أرهد الناس في الدنيا على بن أبي طالب» وقال سفيان «إن علياً لم يبرأ حره على حره ولا منه على لمة ولا قصبة على قصبة» وقد أبى أن يعزل لعصر الأبيض بالكوفة إثاراً للخصاص التي يسكنها الفقراء. وربما باع سبعة لعشيرة بثمنه انكساء واضعاً وروى النضر بن منصور عن عتبة بن علقمة قال «دخلت على عيسى عليه السلام فإني بين يديه لبر حامض ألتى حموصته وكسري يسه فقلت يا أمير المؤمنين، تأكل مثل هذا؟ فقال لي يا أبا الحبوب كان رسول الله يأكل أيس من هذا ويبس أخش من هذا وأشار إلى ثيابه. فإن لم أخذ بها أخذ به خفت إلا ألحق به».

وعلى هذا الرهد الشديد كان عيسى رضي الله عنه أنعد الناس من كرارة طبع وصيق حظيرة وجعاء عشرة، بل كتب فيه سماحة يتبسط فيها حتى يقار دعاية وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال له «إله أبوك لولا دعاية منك» وأنه قال لمن سألوه في الاستحلاف ما أظن إلا أن يلي أحد هذين الرجلين على أو عثمان فإن ولي عثمان فرحل فيه بين، وإن ولي على فعليه دعاية، وأحرى به أن يحطهم على الطريق»

• • •

وأغرق بن العاص في وصف الدعاية فسمها «دعاية شديدة» وطفق يردد ما بين أهل اسنم يقدح بها في صلاح لإمام للحلافة، وإمام يقرب من ابن العاص أعرق في هذا الوصف، وإن الدعاية المعيبة لم تكن قط من صفاته لأن تاريخ علي وأمواله ومواسره مع صحبه وبعثاته محفوظة لديها لا يرى فيها دسلاً على خلق الدعاية فصلاً عن الدليل على الإغراء فيه فإن كان لهذا الوصف أثر أثار لعمر ابن الخطاب أن يذكره فربما كان مرجع ذلك أن علياً خلا من الشغل سبب عدة، فأعماه اشعر لشاعر من صرامته وأسلمه حياء إلى سماحته وأحاديث صحبه ومريديه فحسبت هذه الدعة من الدعاية البريئة ثم بالغ فيها المبالغون، ولم تثبتوه بقصة واحدة أو شاردة واحدة تحير بهم ما تقولوه

وقد كانت للإمام صفات ومرايا فكرية تصبى لمشهور المفق عنه من صفاته النفسية ومرايا اخلاقية فانفق خصومه وأنصاره على بلاغته واتفقوا على علمه ومطنته، ونعرقوا فيما عدا ذلك من رأيه في علاج الأمور ودهانه في سياسة الرجال.

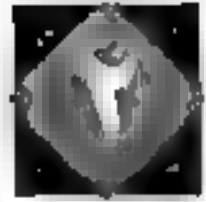
والحق الذي لا مرأى فيه أنه كان على نصيب من العظمة العادة لا ينكره  
منصف، وأنه أشار على عمر وعثمان أحسن المشورة في مشكلات الحكم والقضاء،  
وأنه كان أشبه لخلفاء بلباحثين والمقيمين أصحاب الحكمة ومذاهب التفكير  
وعنه أخذ الحكماء الذين شرعوا علم الكلام قبل أن ينطرق إليه علم فارس أو علم  
يونان. وكان يفهم أخلاق أساس فهم العام المراقب لخفايا الصدور ويشرحها  
في خطابه وخطبه شرح الأديب اللبيب.

إلى هنا سبق عليه لا يكثر فيه لخلأه، ثم يفنوا لناس في رأيه رأيين وإن  
لم يكونوا من الشائنين المنحرفين عيقور أناس إنه كان على عسط واقف من الفهم  
والمشورة، ولكنه عند العمل لا يرى ما تفصى به السعة الحازية ولا يستفح بما  
يرى. ويقول أناس بل هو الاضطرب وانحرج يقيدانه ولا يقيدان أعداءه وإبهم  
لدوبه في العظنة وانسداد وهو رضى الله عنه قد اعتذر لنفسه بمشابهة من هذا  
اعذر حين قال «والله ما معاوية بأ، هي منى، ولكنه يقدر ويفخر، ولو لا كراهة  
اعذر لكنت من أدهى الناس».

. . .

أما مقطع الرأى بين الرأيين فمروحوا أن يفصيه في مراصعه من الفصول التالية  
مشفوعا بمناسباته، ولكنك تستطيع أن مجرم مما يجههتين تحملان ما بسطه في  
موضع من الكتاب، ولا محسبهما تتسعاير لحيل طويل، وهما أن أحد لم يثبت قط أن  
العمل بالأراء الأخرى كان أجدي وأجح في عصر المشكلات من العمل برأى الإمام،  
وإن أحدا لم يثبت قط أن خصوم الإمام كانوا بصرفهم الأمور خيرا من تصريحه لو  
وصعوا في موضعه واصطلحت عليهم المتعصب التي اصطلحت عليه، وكلف الحقيقتين  
حرية أن تضبط لسان العيران قبل أن يحيل فيعلو به المين هذا أو هناك

هذه صفات تنتظم في سق موضوع. ربح شعاع لأنه قوى، وصادق لأنه  
شجاع وراهد مستقيم لأنه صادق. ومثار لخلأه لأن الصدق لا يدور بصاحبه  
مع الرعب والسخط والعبور والنفور وأصدق الشهادات بهذا الربح الصادق أن  
الناس قد أثبتوا له في حياته أحمل صفاته المثلى، فلم يختلفوا على شيء منها  
إلا الذي صطدم بالمطامع وبفقرت حوته الشبهات، وما من رجل تتعسف المطامع  
أسباب الطعن فيه ثم تنقذ منه إلى صميم



## مفتاح شخصيته

«آداب الفروسية» هي مفتاح هذه الشخصية البيلة الذي يفض منها كل معق ويفسر منها كل ما احتاج إلى تفسير

وآداب الفروسية هي تلك الآداب التي تلخصها في كلمة واحدة وهي «البخوة» وقد كانت البخوة طبع في عليّ قطر عليه، وأدبا من آداب الأسرة الهاشمية بشأ منه، وعادة من عادات «الفروسية» لعملية التي يتعودها كل فارس شجاع متعلّب على الأقران، وإن لم يطبع عليها وشأ في حرمها، لأن لفظة في الشجاع أنه تآبى عليه أن يسف إلى ما يخلطه ويشبهه، ولا تزال به حتى تعلمه البخوة نعمة، وبمعه أن يعص في السر ما يرى به في العلانية

وهكذا كان عليّ رضى الله عنه في جميع أحواله وأعماله بلغت به بحرة الفروسية عايتها المثلى، ولا سيما في معاملة الضعفاء من الرجال والنساء هم يسر الشرف قط ليعتم الفرصة، ولم يسوره الرب قط في الشرف، والحو أنها قد ثمان دائمان كأنهما مودعان في طبائع الأشياء، فإذا صنع ما وجد عليه فليس من شاءوا ما وجد عيهم، وإن أعادوا كثيرا وباء هربا الجسار

أصاب المقتل من عدوه مرات فلم يهتبي الفرصة السانحة بين يديه، لأنه أراد أن يعلب عدوه غلبة الشجاع الشريف، ولم يرد أن يعلبه أو يعص منه كيما كان سبيل العلب وانقصاص

قال بعض من شهدوا معركة صفين لما قدمنا على معاوية وأهل انشام بصفتهم وحداهم قد برلو مبرلا اختروه مسويا بساوا واسعا وأحدوا «الترعة» أي مورد الماء - في أيديهم وقد أجمعوا على أن يمدعوا الماء، ففرعنا إلى أمير المؤمنين فخيرناه بذلك فدعا صعصعة بن صرحان فقال له انت معاربه وقر له إيا سرا مسيرنا هذا إليكم ونحن نكره قتالكم قبل الإغذار إليكم، وإنك قدمت إلينا خيلك ورحلك فقاتلتنا قبل أن نقاتلك وبدأتنا ونحن من رأينا لكف عت حتى ندعوك ونحتج عليك، وهذه أخرى قد فعتوها إذ حنم بين الناس وبين الماء،

ولباس غير منتهى أو يشربوا فبحث إلى أصحابه فمخلو بين أساس وبين الماء  
ويكفوا حتى ينظر فيما بين وبينكم وفيما قدمنا له وقدمتم له »

ثم قال راوى الخبر فمعه من معاوية سائر أصحابه فأشادوا عليه أن يحول  
بين عبي وبين المورد غير حافل بدعوته إلى السلم ولا بدعوته إلى المفاوضات في  
أمر الخلاف فأبى معاوية مديا إلى حراس المورد يحمونه ويصدون من يقترب  
منه، ثم كان بين المعسكرين براشو بالسيل قطع بالرمح فصرت بالسيوف حتى  
استحم أصحاب على طريق الماء وملكوه.

وهنا فرصة الكبرى لو شاء عبي أن يهتبلها، وأن يغلب أعداءه بالظلم كما  
أرادوا، أن يعطوه به قبيل ساعة وبعد جاء أصحابه يقرلون والده لا يسقيهموه  
مكثما كان هو سفير معاوية وحده إليهم يتشفع لهم ويستلب قلوبهم من أحلمهم  
وصاح بهم :خذو من الماء حاجتكم وارجعوا إلى عسكركم رخلوا عنهم، فإن الله  
عز وجل قد نصركم عليهم بظلمهم وبعبهم»

ولاحت له فرصة قبل هذه الفرصة في حرب أمر البصرة، فأسى أن يهتبلها  
وأعصب أعونه بإصاف لأعدائه لأنه نهاهم أن يسندوا إيمانهم ويسندوا السبي  
وهو عبي رأيهم حلال قالوا أنه يحرم على أموالهم فقار  
«إني أرى القوم أمثالكم، من صفح عما فهو مما وجر منه، ومن لج حتى يصاب  
فقدته منى على الصدر والجر ومن لهم سنة الفروسية أو سنة البخوة حين  
أوصاهم ألا يقتلوا مدبرا ولا يحجروا على حرج ولا يكشفوا ستر ولا يمدوا يدا إلى  
سأل

ومن الفرص نتي أنف علقه البخوة أن يهتبلها فرصة عمرو بن العاص وهو  
ملكى على الأرض مكشوف السوء لا يبالى أن يدفع عنه الموت بما حصره من  
رقاء قصاف بوجهه عنه أنها أن يصرخ رجلا يحاف سموت هذه المخافة التي لا  
يرصاهها من مداره في محار صراع، وهو غير على أتيج له أن يفصى على عمرو  
تعليم أنه قاص على حركومه عداء ودهاء هم يبار أن يصيبه حيث ضربه ولا  
حماح عليه

لقد كان رصده من الأدب في الحرب والسلام رصا الفروسية العريضة من جميع  
أدبيات ومأثوراتها

عكس يعرف العدو عدوه حيثما رفع أنسوف مقنله ولكنه لا يحدد امرأة ولا  
رجلا موبيا ولا حريحا عاجزا عن بضال ولا ميتا ذهب حياته ولو ذهب في  
سبيل حربه بل لعله يذكر له ماضيه يومئذ يقف على قبره ليذكره ويرثيه  
ويصلي عليه

وهذه الفروسية هي التي يغصت إليه أرواح عداؤه باسناد ولبس من دس  
الفراس أن يتال أعداءه بغير الحسام

فلما سمع قوما من أصحابه يسبون أهل الشام أيام حروبهم بصغيرين قال بهم  
«إني أكره أن تكونوا سبائين، ولكنكم لو وصفتهم أعمالهم وذكرتم حالهم كن  
أصوب في القول وأبلغ في العذر وعلتم مكان سيكم أيامهم اللهم احقق دماءنا  
ودماءهم، وأصنع دس بيننا وبينهم واهد هم من ضلالهم حتى يعرف الحق من  
جهله، ويرعوى عن الغي ولعدوان من يهيج به»

وربما شد عن سنده هذه هي بعض الأحايين فإيا به لا شد عنها إلا كما يشد  
الفرسان حين تغلبهم نواير اللسان فندر بين رجال السيف من يسمع الكلمة  
المغصبة فلا ينطق لسانه بكلمة عوراء يجاري بها عصبه الذي طبع على بدائه  
ولم يطيع على كتمان

ومن قبيل هذا كلمت قائلها على في بن العاص وهي معاوية وهي الأشعث بن  
قيس وغير هؤلاء ولكنه لم يجعلها ديسا له كما سبوه على العتير وأشاعوا  
هذمه بين أهل الأمصار

شعب عليه الأشعث بن قيس ومرء عليه الحديد وأهشى بين أنصاره القصة وقطعه  
حره وهو يخطب على منبر الكوفة فأعصبه وماح عيطه فبره بقوله «عليك بعة  
أبلة ولعنه للأعبيس حائك ابن حائك، صدق ابن كافر، والله لقد أسرت الكفرة مرة  
والإسلام أخرى فما فداك من واحدة منهم مالك ولا حسنة، وإن مرا ولي على  
قومه السيف وساق إنيهم الحنف لحرى أن يمعنه الأفرح ولا يأمنه لأبعد»

وطفق بن اعاصر يبعثه بين أهل الشام بالهرج والدعاية وبأمر يسبه على المنابر حتى وصف ربه وإدحاص رعبه، فقال رضي الله عنه في بعض خطبه عجبا لابن السائغ: «يرغم لأهل الشام أن في دعابة واني «مروثلعبة أعمس» وأمارس لقد قال باطلا ويطرق اثما اما - بشر القول الكذب - به ليقول فيكذب، وبعد فيخلف، ويسأل فيبذر، وبخور العهد ويقطع الآن» فإذا كان عند الحرب فأى راحر وأمر هو ما لم يأخذ لسيوف مآخذها فإذا كان ذلك كان أكبر مكسبه أن يعصم القوم سبته أف والله إنني يسمعني من اللعب ذكر الموت، وإنه يبعثه من قول الحق يسير الآخر وأنه لم يداع معاوية حتى شرط أن يؤتبه أنية ويرصخ به على برك الدين رضىخة»

وكذلك كان يحبه معاوية وغيره ببطائر هذه الكلمات حين يحترثون عليه بما يعصر من حقه ويقدر في دعوته فلا يشذ عن مدد العرس في روية فكره ولا هي بواند لسانه ولكن الفلتات التي من هذا القبيل شيء وتخاذ السباب صياغة دائمة وسلاحا مشهورا وسبيلا إلى القول لباطل شيء آخر

ولقد كانت للإمام رضي الله عنه شواغل أخرى غير العروسية تحرى في مجراها حبا وتبدو عريضة عنها حبا خرمي عرف بعض الباقدين ومنها انتفقه والبروع إلى «التصوف» واستباط حقائق لأشياء

• • •

عهده في عرف بعض الثافدين ليست من مزاج العروسية على ظهري ما عدوه ولكن ما التصوف أو لتحرر للحقيقة أليس هو في معدته جهادا في الحق أو جهاد في الله ألبست طبيعة الجهاد وطبيعة العروسية من معدن واحد ألم معده في كل ملة وكل زمان فئات من الناس يحاهدون لأنهم مديمون مضطربون أو يقتديون ويتنظسون لأنهم مجاهدون؟

فالإمام على رضي الله عنه عارس لا يخرج من العروسية فقه الدين بن هو أخرى أن يسلكه عنها، ولا يخرج من العروسية بعض المقل في خصومه بن هي برادر العرسا بعينها، ولا تراس اداة العروسية شئى عو رصها هي المفتاح الذي يدار في كل باب من أبواب هذه النفس فرد هو منكشف لمناظر عما يليه

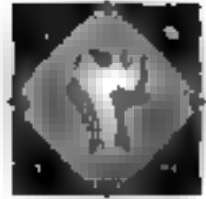
٢ الار الفراه والرحم

المعاصنة مصابرة الناس مرادها وجه ربه الله

٣ الامية العطية ومثلها الرضىخة مع قلبه



# إسلامه



ورد على من دخل الكعبة، وكرم الله وجهه عن السجود لأصنامها مكانا كان ميلاده ثمة إذانا بعهد جديد للكعبة وللعبادة فيها  
وكاد على أن يولد مسلما.

من نقد ولد مسلما على التحفيظ إذا نحن نظرنا إلى ميلاد العقيدة والروح، لأنه فتح عبيده على الإسلام ولم يعرف قط عبادة الأصنام

فهو قد تربى في البيت الذي خرجت منه الدعوة الإسلامية وعرف العبادة من صلاة النبي وروحه الصاهرة قبل أن يعرفها من صلاة أبيه وأمه، وجمعت بينه وبين صاحب الدعوة قرابة مصاعفة ومحبة أوثق من محبة القرابة فكان ابن عم محمد عليه السلام ورببه الذي نشأ في بيته ونعم يعطفه وبره، وقد رأيت الأقرباء يحبون محمدا ويؤثرونه على أبنائهم وبنوهم، فلا جرم يحبه هذا الحب من يحبه به جده ويجمعه به بيت، ويجمعه به جبين معروف؛ حميل أبي طالب يؤدبه محمد وجعين محمد يحسه ابن أبي طالب ويأوى إليه

واختلفوا في سنه حين إسلامه من المدابعة إلى السادسة عشرة، ولعله أسلم في نحو العاشرة، لأنه كان يهاجرها عند إعلان الدعوة الحميرية، وكان لبني عبية السلام يتعبد في بيته عبادة الإسلام قبل الدعوة بفترة غير قصيرة، وليس من يجمع عليا أن يألف تلك العبادة في طفولته ابتاكرة فلماذا هو يفر منها، وأعرض عنها بغير سبب في تلك الطفولة الباكرة فالعجيب أنه يعود إلى ألفتها ولربما بها بعد أن بلغ السن التي يعرف فيها معنى الغضب لعباده الآباء والاحداث

ولولا ألفة علي لابن عمه وكافله لما قربته القرابة وحدها من الدين الذي دعى إليه، فقد أصر كثير من أقرباء النبي على لشرك ربه محمدا، منهم عقيل أخوه وأحب أخوته إلى أبيه، فحارب العنصيين في بدر ولم يسلم وقد وقع في أسر النبي وصحبه بن أمية و عمه العباس وخرج من الأسر وهو على دينه، ثم أسلم بعد صلح الحديبية مع طائفة من الغرياء والأقربين

على أن الالة بين ابني العم الكريمين قد اوشكت أن تكون عائفا لإسلام عليّ  
في طفولته لباكرة لأن النبي عليه السلام أبى أن يترع الطفل من دين أبيه  
وأبوه لا يعلم، وأشفق أن يكون برة بعمه وبأب عمه سبيلا إلى انفرقة بين الأب  
وأبيه وهو لا يدرك ما يفعل، ولم يشأ أن يعوذ الطغر الصغير « يحفى سرا عن أبيه  
كأنه يحدعه بهففته ولو في سبي الهداية والخير، فطر هذا الحرح الكبير عائفا  
عسيرا أعسر ما فيه أنه عائق الخسار بهور معه الاضطراب، أو عائق حيرة نقل فسه  
حيلة الكريم حتى شاع أمر اسعوة المحمدية وعلم بها بن طالت وبصر ابن أخيه  
وأمر عليا بمتابعة ابن عمه وبصره، فأقبل العلامة البر بأبيه ويكافئه إقبالا لا  
تلحج فيه على الدين الحدي

وملا اندين الحديد قلب لم يدرع فيه مدرع من عقيدة سابقة ولم يخالطه  
شوب يكدر صفاءه ويرجع به إلى عقيدته فيحق ما يقال إن عليا كان المسلم  
الخالص على سحيته المثلى، وإن اندين الحديد لم يعرف قط أصدوق إسلاما منه ولا  
أعمق نفادا فيه

كان المسلم حق المسم في عبادته، وفي علمه وعمله، وفي قلبه وعقله، حتى  
لتصبح أن يقال إنه طبع على الإسلام فلم تروه المعرفة إلا ما يريده التعليم على  
الصباح

كان عندما يسهي العبادة كأنها رياضة تريحه ويسب مرا مكتوبا عليه  
وكن يرى في كهولته وكأنها حبهنة ثقة بعير من إيمان السجود وكان على  
محجة في الإسلام لا يحيد عنها لوعة ولا خشية فكلم ريتوا له اليهودية أبي «أن  
بداه في دينه ويعطى الدسة في أمره» وأثر الأخير كما يراه على الخير كما يراه  
الناس

وكان ديمه له «لعدوه، بن له ولعدوه قد كان الحق عنده من يرضاه دون  
من يقلاه، ولكنه كان الحق بكل من استحقه ومن بهته وأداه

✽ ✽ ✽

وحد دوعه عند رجل نصرسي فأقبل به إلى شريح - قاصبه - يحاصمه  
محاصمة رجل من عامة رعایاه وفار بها درعى وم أيم ولم اه، عسئ

شريح النصراني ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين؟ قال النصراني ما  
 ادع إلا درعي وما أمير المؤمنين عدى بكاءه فالتفت شريح إلى عبي  
 يسأله يا أمير المؤمنين هل من بيعة؟ فصاحت على وقال أصاب شريح ما  
 لي بيعة؟ فقصى بالدرع للنصراني فأخذها ومشى و «أمير المؤمنين» بنصر  
 إليه إلا أن النصراني لم يحط خطوت حتى عاد يقول أما أنا فأشهد أن هذه  
 أحكام أبياء أمير المؤمنين تدبني إلى قاضيه يقضى عليه أشهد أن لا إله  
 إلا الله وأن محمد رسول الله، الدرع وأبى درعت يا أمير المؤمنين تبعته  
 الحيش وأنت منطلق إلى صفين فخرجت من عبرك الأورو فقال أما إذا أسلمت  
 فهي لك وشهد الناس هذا البرح بعد ذلك وهو من أصدو الحب بلاء في قدس  
 الخوارج يوم النهروان.

وأحسن الإسلام عما وفقها كما أحسنه عباده وعملا، فكانت فتواه مرجعا  
 للخلفاء والصحاب في عهود أبي بكر وعمر وعثمان، وسدت مسألة من مسائل  
 الشريعة لم يكن به رأى فيها يؤخذ به أو تهمل له أحجه بين أفص الأراء

غير أن المزية التي امتاز بها عبي بين فقهاء الإسلام في عصره أنه حصر الدين  
 موضوعا من موضوعات التفكير والتأمل ولم يقصره على العباداة وأجرء  
 لأحكام فإن عرف في عصره أدس فقهاء في الدين لأصححو عباداته  
 ويستبطلوه منه أفصيته وأحكامه فقد امتاز على بالعق الذي يرد به الفكر  
 المحض والدراسة الخالصة، وأمعن فيه لدعوص في أعماقه على الحقيقة العلمية،  
 أو الحقيقة الفلسفية كما نسميها في هذه الأيام.

« \* »

ويصح أن يقال إن علي رضي الله عنه أبو علم الكلام في الإسلام لأن  
 امتكلمين أقاموا مذهبهم على أساسه كما قال ابن أبي الحديد في شرح نهج  
 الإبلاغة هو اصل بن عطاء كبيرهم تلميذ أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية،  
 وأبو هاشم تلميذ أبيه، وأبوه تلميذ علي رضي الله عنه وأما الأشعرية فابهم  
 بتمون إلى أبي الحسن علي بن أبي الحسن علي بن أبي بشر الأشعري وهو تلميذ  
 أبي علي الحنفي، وأبو علي الحديث أحد مشايخ المعتزلة الذين علمهم واصل بن  
 عطاء أما القصة فإمامه الأكبر أبو حنيفة قرأ على جعفر بن محمد وجعفر بن

محمد قرا على اسمه وهكذا ينتهي الأمر إلى عسى رضى الله عنه وقد قرأ، مالك بن  
أس على ربيعة الرأي، وقرأ ربيعة على عكرمة، وقرأ عكرمة على عبد الله بن  
عباس وقرأ عبد الله بن عباس على علي رضى الله عنه، وقيل لابن عباس أين  
علمك من عمك؟ فقال كنسبة قصرة من المطر إلى البحر المحيط.

• • •

قال ابن أبي الحديد «ومن العلوم علم الطريقة والحقيقة وأحوال التصوف، وقد  
عرفت أن أرباب هذا الفن في جميع بلاد الإسلام إليه يحتشرون وعنده يقفون، وقد  
صرح بذلك الشبلي والجميد وسوى وأبو يزيد البسطامي وأبو محفوظ معروف  
الكرخي وغيرهم، وبكفيك دلالة على ذلك الخرقعة، حتى هي شعارهم إلى اليوم،  
وكوسهم يستندونها بإسناد متصل إليه عليه السلام.»

وقد جمع «بهج البلاغة» سادج شتى من الكلمات التي تحسب إليه ويصح أن  
تحتسب أصلاً «للعلم الإلهي» أو لأسرار التصوف في صدر الإسلام قبل اشتغال  
المسلمين بفلسفة اليونان وحكمة الأمم الأجنبية ورجعاً وقع الشك في نسبة  
بعض الكلمات إلى علي رضى الله عنه لأنها تجمعت بعد عصره بمرور طويل  
وامتزج بها ما لا بد من يمارجها من علوم القرن الثالث وما بعده ولكن شئت  
على هذا بهج لا بد أن يكون قد صدر منه حفا حتى حار أن يفصل النسب بينه  
وبين أنمة التوحيد وعلم الكلام على النحو الذي نواترت به الأقوال وأجمله ابن  
أبي الحديد فجمع تقدم

ولت أن يقول إنه كان رضى الله عنه يتلمذ للعرفان الكريم وسبوخته مصاً في  
عرفان إسلامه وتقرير يصبه فكانت مطرته إلى الحق والخلق مسرة قرآنية يتكرر  
ما شاء ابتكر التلمذ في الحكمة عن الأستاذ فكلامه عن الطاووس والخفاش  
والزعر والسحاب إنما هو الدرس القرآني الذي وعاه من أمر الكتاب بالنظر في  
المخلوقات ووصف الكتاب لطوائف منها كالمل والحر والطيور والأجنة في  
الأرحام فهو تلميذ ربه جلّ وعلا في قوله عن الخفاش «من لطائف صنعه  
وعجائب حكمته ما أراها من عو مص الحكمة في هذه الخفاش التي يقبضها  
الصياد الباسط لكل شيء ويبسطها الطلام أنفابص لكل حي، وكيف عشت أعينها  
عن أن تستمد من الشمس المضيئة نورا تهتدي به في مهابها، فسيحان من جعن

الليل بها بهارا ومعاشا والنهار لها سكا وفرارا، وحمل لها أجنحة من لحمها  
تعرج بها عند الحاجة إلى الطيران كأنها شطايا، لأنان، عبر دوات ريش ولا  
قصص، تطير وولدها لاصق بها لاحت إلىهما يقع إذا وقعت، ويرتفع إذا ارتفعت، لا  
يفارقها حتى تشتد أركانها ويحملة للهوى جناحه، ويعرف مداها عبثه  
ومصالح نفسه فسبحان الدارئ بكل شيء على غير مثال خلاف غيره»

ومثله قوله عن الطاووس «ومن أعجبها خلقا الطاووس الذي أقامه في أحكم  
تعددين وبض ألوانه في أحسن تنصيد، يجناح أشرج قصبه ودين أطال سحبه، إذا  
درج إلى الأنثى نشره من طيه، وسمايه مصلا على رأسه وعد يحس من ريشه  
ويعري من لباسه فيسقط متري رينب تباعا، فيبصت من قصبة محتات أوراق  
الأعصان، ثم يتلاصق ثابيا حتى يعود كهيئته قبل سقوطه لا يحاف ساف  
ألوانه ولا يقع لون في غير مكانه»

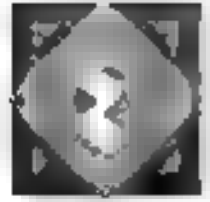
وحن لا يستعرب ابتداء هذا النمط من النظر الفلسفي على نحو من الأنحاء في  
عصر الإمام علي رضي الله عنه، لأنه كان عهدا بقيت فيه أصول الفرق الإسلامية  
جفيف من الخوارج والشيعة والقبائليين بالرجعة وتدميخ لأرواح والمجهدين في  
قراءة سقران وتفسيره على شتى المذاهب فأقرب شيء إلى المعقول أن يكون إمام  
العصر كله قدوة في الاجتهاد والنظر وعنوانا للوارع التي تفرقت بين أهل زمانه  
وبعبارة صادقا لهكثيره ووعيه، وصاحب أقوال من قبيل هذه الأقوال التي  
قدمناها وإن لم تكن هي إياها بالنص والتفصيل

وبستقيم مع هذا التقدير أن يكون الإمام علي سحيته مؤثرا للاجتهاد ما  
استطاعه، معرضا عن التقليد ما استعنى عنه، موافق الخفاء من قبله في أمور  
وخالقهم في أمور، وأبى أن يأتهم بعملهم فيما يراه وما لا يراه، وأوصى ابنه  
الحسن وقد بلغ السنين فقال : «اعلم يا بني أن أحب ما أتت به يدي من  
وصيتي تقوى الله والاقصهار على ما فرضه الله عليك والأخذ بما وصي عليه  
الأولون من آبائك والصالحون من أهل بيتك، فإنهم لم يدعوا أن يظنوا إلى أنفسهم  
كما أنت ناظر وفكروا كما أنت مفكر فإن أتت بعسك أن تقبل ذلك دون أن تعلم  
كما علموا فليكن طلبك ذلك بنفسهم ومعلم، لا بتورط الشبهات، وعلق الخصومات  
وابتدى قير بطرك في ذلك بالاستعانة بإلهك، والرعة إله في توفيقك، وترك كل

شأنه أوبحك في شيهة أو أسلمتك إلى صلالة فإن أبقت أن قد صفا قلبك وتم  
رأيت فاحصم، وكان همك في ذلك هم واحد، فاطرهما عسرت لك.

وربما كانت هذه اوصية وحدها كافية للتعريف بسلام على كما ارتضاه  
نفسه وارتضاه لقادرين عليه من أنواعه فبما هو إسلام المسلم «المطبوع»  
لدى بيتك دسه، لأنه يعتمد فيه على وحى بصيرته وارتجال مزاجه، وإنما هو  
سلام الحكيم المحنهد الذي يرجع في الحكمه والاحتهد إلى رخصة النفس على  
سنة أسسك وتمحيص الفكر على سنة العلماء، وإنما هو إسلام الرحمن الذي أبح  
له أن يتعلم لربه ويقرب في حجر تبيته ويصبح إماماً لمقتدين من بعده

\* \* \*



## عصر الإمام

كانت المدهرة الكبرى في عصر «علي» زاهرة اجتماعية خاصة به دون  
عصور لخلقاء من قبله، ولم تكن في حقيقتها ظاهرة سياسية أو حربية عسكرية  
على شدة القتال فيها وغلابة الدماء التي أريقها في حروبها

فعصر أبي بكر كان هو العصر الذي نشأت فيه الدولة الإسلامية

وعصر عمر كان هو العصر الذي تم فيه نهجها

وعصر عثمان كان هو العصر الذي تكون فيه المجتمع الإسلامي بعد نشأة  
الدولة الجديدة فبرز فيه نظام جديد على أساس انشورء المحلية من الأقطار  
المفبوحة وعلى أساس ابولاياء التي ثولاها بعض ابطباقات المرشحة للرئاسة  
من العلية وأشباهاها

أما عصر علي فكان عصراً عجيباً يبر ما تقدمه وجاء في أعقاب أو هو لم  
يكن عجيباً لأنه جرى على المسر الذي يسبق أن يجرى عليه، فلم يثبت كل  
لثبوت ولم يصطرب كن الاضطرب لأنه كان بقاء حديدا هي سبيل القمام  
ولم يكن بقاء متداعيا فكله هدم واندثار ولا بقاء قائما مفروغا منه فكله  
رسوخ واستقرار

غير أن العجيب فيه حقا أنه يقسم بين ثبوتيه واضطرابه قسمين اثنين  
متقابلين في أحدهم كل عوامل الرضا عن النظام الاجتماعي ولزعه في بقاءه  
وتدعيمه، وفي الآخر كل عوامل الندم من النظام الاجتماعي والفساد بقوانينه  
وتحويله

أحدهما، وهو قسم الرضا عن النظام الاجتماعي، كان قسم معاوية بن أبي  
سفيان في الشام وما حاورها

والآخر، وهو قسم الندم من النظام الاجتماعي، كان قسم علي بن أبي طالب  
في الجزيرة العربية بجملة أنحائها



كانت اشقام بمعنى من المعاني رصداً أموية في عهد الحاشية فلحاً إليها أمة  
حد الأمويين حين عليه هاشم على الرعاية، وقصد إليها أباؤه متحريين  
أو مهاجرين إلى ما بعد قيام الدعوة الإسلامية

ثم قامت الدعوة الإسلامية فكان من نصب بريد بن أبي سفيان أن يتولى  
الإمرة والقيادة على الشام من قبل الخليفة أبي بكر الصديق، وخلعه أخوه  
معاوية من قبل الخليفة عمر، فلم يزل مقيماً على إمارتها بصنع عشرة سنة إلى  
مبايعة علي بالخلافة بعد مقتل عثمان فانتزع له من مساحة الوتة ومساحة  
أرضاء مجال مهدي بتأسيس لسلطان الأموي الذي لا يسارعه مزارع من حوله، ولم  
يزل منذ توليها عاملاً على إبقاء فيها واصططع بالأعوان المؤيدين له في حكمها،  
فلم يتوان في استرعاء رجل منفعه رصاه، ولم يفحص رعايته على الشراء دون  
السواد من الأتباع والأحناد، بل كان يرضى كل من وسعه إرضاءه، وقد وسعت  
ثروة الشام كل صاحب حاجة مقدم عنده أو ساع إليه

واشتهرت عنه هذه الفصلة حتى قصده أقرب الناس إلى خصومه وأولاهم باحتفابه  
والنقمة عليه ومنهم عقيل أخو علي بن أبي طالب، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد  
الله بن زمعة، وعمرو بن العاص، وأبى من هذه الطبقة بين الشراء وذوي الأخطار  
أرد عقيل من أخيه مالا يجريه عليه من بيت العار فأباه عنه لأنه ليس له  
بحق فتركه وأقبل على معاوية وهو يقول «إن أخى خير لي في ديني، ومعاوية  
خير لي في دنيائي» وقس على ذلك ما يصنعه العرباء عن علي والمقربون من  
معاوية بالنسب والرجاء.

قد همم إرضاء السود والعامه، كما همم برضاء الشراء وذوي الأخطار «ويلع من  
إحكامه لتسببته وثقته لها واحتد به قلوب خواصه وعوامه أن رجلاً من أهل الكوفة  
دخ عنى بغير له إلى دمشق في حال مصروفهم عن صفين فتعلق به رجل من دمشق  
عقار هذه باقى أخذت منى بصغير فارتفع امرهما إلى معاوية وأهم الدحشقي خمسين  
رجلاً بنية يشهدون بها باقته فعصى معاوية على الكوفي وأمره بتسليم البعير إليه،  
فكان الكوفي أصلحك الله به حمل ولحق بسافة هبال معاوية هذا حكم قد مضى، ورس  
إلى الكوفي بعد تفرقهم فأحصره وسأله عن ثمن بغيره فدفع إليه ضعه ويره وأحسن  
إليه وقال له «أطلع عنت أبي أتابه يمارة ألف ما فيهم من يفرق بين السافة والحصن»

ولقد بلغ من أمرهم هي طاعتهم له أنه صلى بهم عند مسيرهم إلى صغير الجمعة في يوم الأربعاء وأغاروه رعوسهم عند اقتناي وحموه بها<sup>(١)</sup>

فإن كان في هذه لقصاص بعض العبالعة فهي مبالغة الفكاهة لمؤكلة سكينير الملامح لوراها من عندها، وليس مبالغة الحلق والافتراء

وما هي إلا سنوات على هذه الوثيرة حتى اجتمع به كل منتفع بالمظام الاجتماعي الجديد، رغب في تدعيمه ووقايته من بدر الخطر والزوال

وعلى قدر هذا الدأب الشديد في اجتلاب أسباب التمكين والدعيم كان له دأب مثله في انتقاء أسباب التمرد، والإخلال بالنظام، كما قسميه في هذه الأيام

فما سمعت قط صحيحة مئة إلا يبادر إليها بم يسكنها ويرددها إلى طلب الاستقرار والدوام فمن أجدي معه الما أسكنه بإعداؤ المال عليه ومن كان من أهم الحد والإخلاص في لعبادة والزهادة فهو محتال على إقصائه أو بغيه من اشقام بحملة يوافقها عليها شركاؤه في المصلحة ولا تعييه

حق بعض الزهاد على هذا الثرف الذي استعاض به بين البعية والشرفاء هارتفعت عليهم صحيحة أبي در الغفاري بالكبير، وطفو يطالب الأعياء بالإعاق في سبيل الله، حتى ولع الفقراء بصيحته وشكا الأعياء ما يبقونه من مديرة أو بشيره «ويشر الذين يكروى الذهب والعصاة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها حباهم وحبوبهم وظهورهم».

هأشفق معاوية من معة هذه الصبحة وأرسل إلى أبي در ألفه دينار بسكنه بها إن كان ممن يسكنهم الغنى عن الأعياء، فما طلع النهار حتى كانت الدنانير في أيدي المعورين الذين يلونون بالداعية الأمين ويشكون إليه، ثم صلى معاوية الصبح وأرسل إلى الداعية رسوله الذي حمى إليه الدنانير يقول له «أنف جسد من عذاب معاوية فيه أرسلني إلى غيرك فأخطأت بك فقال له يا بني، قل له والله ما أصبح عندما من دنانيرك دينار ولكن أخرب ثلاثة أيام حتى يجمعها» فعزم معاوية أن الرشوة هذا لا تعنى عن القسوة وكتب إلى الحليفة أن أبا در أعصل به فلا طاقة له بالصبر عليه، فأتاه الإذن بقى أبي در من الشام إلى

(١) مروج الذهب للمسعودي الجزء الثاني

المدينة، ثم ضاقت به المدينة ابصاراً فعلى منها إلى قرية من أرياصها حيث لا  
يسمع له دعاء.

• • •

وصنع بعبد لله بن سبأ صاحب القوس برجة النسي إلى الدب ووصاية على  
على الخلافة مثل هذا الصنيع بعد أن دأراه فأعياه فلما ينس منه ومن ترغيبه  
أو ترهيبه ضيق عليه ثم أقصاه

والنعت إلى من سماهم أهل نفته من طلاب الإصلاح والمبدين فكذب هي  
أمورهم إلى الخبيثة فهو «إبه قدم على أقوام لبست لهم عقور ولا أديان،  
أصحرهم العدى، لا يريدون لله بشيء ولا يكلمون بحجه، إنما همهم العينة  
وأمنون أهل اسمه، والله مبليهم ومحتبرهم ثم فاصحهم، ونسوا سلبين بكون  
أحدا إلا مع غيرهم».

ثم أخرجهم من دمشق إلى غيرها مستريح منهم بالبقى والإقصاء، كما  
دمشق وبعدها من بلاد المسلمين هي التي ينبغي لها أن تستريح

وهكذا بعقت السور وكس سمة تريد معوية وعرة من أسباب الرصد  
والاستقرار وقته من أسباب انقلب والضموح إلى التعبير، حتى تحبذت به الشام عند  
مبايعة عى وفيها أعظم ما يأتى في مثل ذلك العهد من دواعى السكينة واستدامة  
الحار، وأقر ما يتأتى فيه من شواجر الفتنة والعصيان

• • •

أما على عهد سادات العصاة فإن تعكس الآية في حصته من الدولة  
الإسلامية أيما انعكاس، فأوشكت أن تسعدم فيها دور عى الرضا والاستدامة،  
وأوشكت أن تنم فيها شواجر العينة وما سمي به اليوم بالإخلال بالنظام

فكان التناقض عنده على أشده بين العاصمتين الحارثيتين وبين الكوفة، لا  
يرصى أهل المدينة بما يرصى أهل مكة، ولا يرصى أهل الكوفة بما يرصى به  
هؤلاء وهؤلاء حتى صاق به المقام في الحار وأوى إلى الكوفة مأوى  
«المحتجير من الرمضاء بالبار»

وكانت قبائل البادية تنفس على قريش عندئذ الولاية وحمايت ابدولة،  
وينظرون إليهم بنظرهم إلى القوى المستأثر بحه ندين والدنيا وحق الخلافة  
والسلطة، وهي حالة كان أحق بالولاد أن يخفوها وينلطفوا في إصلاحها أو  
تبديلها ما استطاعوا لها من صلاح ويدين، ولكنهم على نقيص ذلك كانوا  
يبهرون بها ويجهرون بحديثها حتى قال سعيد بن العاص وإلى الكوفة إنما  
السواد بستان لقريش<sup>١</sup>،

وظهر هذا السخط من أثره قريش في خطب المكلمين بستان أهل البادية حين  
سب الراح بين طلحة والزبير وأبصارهما وبين علي وأبصاره، فقام في الجمع  
رجل من عبد القيس يقول

«يا معشر المهاجرين أنتم أول من أجاب رسول الله ﷺ فكان لكم بذلك  
فصل» إلى أن قال يشير إلى خلافة أبي بكر «ولم تستأصروا في شيء من ذلك  
فجعل الله للمسلمين في إمارته بركة ثم مات واستخلف عليكم رجلا فلم  
تشاوروا في ذلك، فرصينا وسلمنا فلما توفي جعل أمركم إلى ستة نفر فاخترتم  
عثمان، وبايعتموه عن غير مشورة منا، ثم بايعتم عليا من غير مشورة منا، فما  
الذي نقمتم عليه فقاتله؟»

وهذا كلام رجل يدين بفصل المهاجرين ويعدمه في صدر مقاله، فكيف يكلام  
الرحا من يسون هذا الفصل أو يعلبهم المناقشة على الشهادة به في معرض  
الخصومة؟ ولعن المنافين بهذا الغيظ كانوا يثريون إلى بعض اصبر ونجادور بو  
أنهم وحدوا من يشككون إليه فيحس الإصغاء والاعتراف لهم بالحق في دعواهم،  
ولكنهم كانوا يشككون فيثور بهم المخالفون ويحبوبهم في الصفت راعين فلما  
قال ذلك الرجل مقالته هموا بقله ساعة لولا أن حمه عشيرته وصحبه ثم  
وثبو عليه في الغد فقتلوه وقتلو معه قرابة سبعين

\* \* \*

وكان العبيد والمواي ولأعراب المحرومون حائقي متبرمين لا يرصون عن  
حظهم من العيش بعد أن علمهم الإسلام حقوق المساواة وشرع لهم شريعة  
الإتصاف، ولقد يكون معظم المتأمرين على قتل عثمان من هؤلاء العبيد والمواي

ولأعراب انحروميين فلما طوبى على بالاقصاص منهم لمقتل عثمان قال «  
 كيف أصنع بقوم يملكوني ولا تمكهم» ف هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم  
 وثابت إليهم أعرابكم، وهم خلالكم يسومونكم ماشاءوا فهلأ ترضى موصفا لغيره  
 على شيء مما تريدون؟»

وقالت لسيدة عائشة رضى الله عنها «أبها الناس إن العوعاء من أهل  
 الأمصار وأهل المصا، وعبيد هل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلما  
 بالأمس. والله لأصبع عثمان خير طيبى الأرض أمثالهم..»

• • •

وكان مع على حمهه افرء والحقاط وأصحاب السك والعفه والشرعة وهم  
 خلق كثير يعدون بالآلوف وينفرون فى احواس واليوسى، ولا يرالون كأسياء بنى  
 سرائين مندريين متوعدين ساحطين على نرف المترفين، منكبين لكل خلاف ولو  
 سير فى إقاعة أحكام الدين، لا يرصون عن لذب ولا عن رضى بها من طلابها،  
 ولا يسمعون إلى أمر إلا أن يكون فى رأهم وفاق لحكم القرآن كما يفسرونه وحكم  
 السنه كما يعتقدها. وطالما رقفو بين على وبين القبا لأهم لا يسجرونه، أو  
 عن اصلح والحكم لأهم يحلون القرآن عن قبوله فإذا كان أجناد معاوية يسمعون  
 الحق والباطل لأهم لا يفرقون بينهما ولا يعرفون بين اعمل والسقة فهؤلاء الأحقاد  
 العارفون لا يسمعون إلا ما أثاروه واستوحبوه لأهم خرجوا فى الأرض للتفريق  
 بين الحلال والحرام والمعروف والمنكر، فلا يجمعون على طاعة ولا يحاربون أو  
 يسالمون فى جماعة. وهم أقرب اساس فى ذلك العهد إلى الحهر بالتغير واندء  
 بالبديين والتغيير، والإصدء إلى وحى الصمير قبر دعاء الأمير

واجتمع مع على فى الحجار والكوفة كل مذهب على الخلافة متطبع إليها ولو  
 لم يجهر بطلبها مضاة من شركائه الدين يراحمونه عيها فمبهم من كان يقول  
 لعلى ببايعك على أنا شركاؤك، ومبهم من كان يتعل بقلة المشاورة له والمبالاة  
 بقوله، ومبهم من كان يحارب عثمان ثم أصبح يحارب عليا باسم عثمان، تمحلا  
 لدرائع الخلافة وكراهة لاستمرار الأمور.

• • •

وقد كان أبو بكر وعمر يمسكان كبار الصحابة بالحجاز ويحذران منهم أن يطلقوا في الأرض فيقبلوا على الدنيا ويشتر يبيعهم من البراع ما يشتر بين طلابها ثم يصدق شمل الأمة بالتشبع لهم وعليهم والفرق بين أنصارهم وأعدائهم، وأوصى أبو بكر خليفته من بعده قائلا

« احذر هؤلاء البعر من أصحاب رسول الله ﷺ الذين تتفخت أحوالهم وطمحت أبصارهم وأحب كل امرئ منهم لنفسه، وإن منهم لصيرة عند زلة واحد منهم هياك أن تكونه واعلم أنهم لن يزالوا منك خائفين ما خفت الله».

فلما صارب الخلافة إلى عثمان أهل هذه السياسة الحكيمة وشق عليه أن يطير جيسهم بالحجاز ولهمب عليهم بجوارره، ما نطلقوا حيث ذهبت بهم العاهات وكان منهم ما حذره أبو بكر حيث قال لعبد الرحمن بن عوف «ورأيتم الدنيا قد أقبلت حتى تتخذوا ستور الحرير وبضائد الدباج، وحتى يألم أحدكم بالاصطجاج على الصوف الأدرى<sup>(١)</sup> كما يألم أحدكم إذا نام على حصك السعدان».

• • •

روى السعدي أنه في أيام عثمان اقتنى الصحابة اصبياع والمال، فكان لعثمان يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار وألف درهم، وقبضة صباغة بوادي القرى وحدين وغيرهم مائة ألف دينار وخلف إبلًا وخيلاً كثيرة، وبلغ الثمن الواحد من متروك الربير بعد وفاته خمسين ألف دينار، وخلف ألف قرس وألف أمة وكانت علة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم ومن ناحية السراة أكثر من ذلك وكان على مريط عبد الرحمن بن عوف ألف قرس وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم، وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانين ألف، وخلف ريد بن ثابت من الذهب والعصاة ما كان يكسر بالفتوس غير ما خلف من الأموال والضياع وبنى الربير داره بالبصرة وبنى أيضا بمصر والكوفة والإسكندرية وكذلك بنى طلحة داره بالكوفة وشيد داره بالمدينة وبناه بالحصن والأجر والساح، وبنى سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق ورفع سكه وأوسع مصاءها وحسن على أعلاها مشرفات، وبنى المقداد داره بالمدينة وحملها

(١) منسوب إلى أنسجاس

محصصة اظهار واباطن، وخلف يعنى بن مديه خمسين ألف دينار وعقارا وغير ذلك ما قيمته ثلاثمائة ألف درهم».

• • •

هؤلاء أيضا أصبحوا فى حصة على من الدولة الإسلامية عصبها من أقوى عصب القلق والنجوى والنفوس من دوام الأمر بالحكومة الجديدة، خلافاً لأمثالهم فى معسكر معاوية

والذى يعلب على أصحاب الثروات فى كل مجتمع أنهم بصر الحالة القائمة وأعداء الثورة والاضطراب السياسى او الاجتماعى على استحصيص، ولكن هؤلاء الأغنياء حاولوا انمعهود فى مجتمع على فاصحوا فادة السخط والشكوى واعوان الثورة والتعبير ولو فى سرائر القلوب كلما حبس بينهم وبين الظهور وهى الثورة بعض بحسوس لأنهم عرفوا عتاً من قبل ومن بعد فعلموا أنه لن يقرهم على ما هم فيه ولن يلبث ان يحاسبهم على ما جمعوه من المال أو يأخذ عليهم طريق امرئ

عرفوا مذهبهم فى حساب اولادهم ومذهبهم فى حساب الخلفاء، فلما كان واليا يلمس أى على بعض الصحابة أن يركبوا، إبل الصدقة وقال لهم: إنما لكم منها سهم كما للمسلمين، ثم لام العام الذى أدن لهم أن يركبوها فى غيبته وهو منصرف إلى الحج وشاعت هذه القصة، لأن أسس شكوه إلى رسول الله ﷺ، فأكر شكوههم منه وقال: «لقد علمت أنه جيبش فى سبيل الله»

• • •

وما دام عثمان بالخلافة طام عتب على عتبه لأنه أباح للعمال وابولاد ما ليس بمباح فى رأيه، وبقي بالاعبات كل صحابى من إخوانه جمع مالا واستهويه فسة اليدخ والثراء.

وبس مذهبهم واليا رلا مذهبهم خليفة بمريح اولئك، الاغنياء الذين داقوا حلاوة الغنى وكرهوا أن يحرموه أن يحاسبوا عليه

ولم يكن فى وسع على أن بعض عنهم نظره ولو شاء ذلك، وهو لا يشاؤه ولا حله لنفسه وقد أنكره على غيره، لأنه إذا عص نظره لم يستمع أن بعض الأبطال



المعبوحة التي تروى بعثت علياً بعده يصنع غير ما صنعته عثمان  
وغير ما اتاهم عليه

فلا دعه اسبياً راضوا مطيعون، ولا دعاه الديار راضون مطيعون، ولا انقرء  
والجهلاء راضون مطيعون، وما منهم إلا من هو قلق مذبذب لا يسكن به سكن ولا  
يدوم به قرار

وكل أولئك كانوا في حصّة عليّ من الدولة الإسلامية ولم يكن لمعاوية في  
حصته شاذرة فتنة من هذه الشواجر، بل كان له في موضع كل وحدة منها  
دعامة تمكين وتأييد

وإن هذه الشواجر على كثرتها وقوتها لم تكن على أخرى من على العساد  
والشقاق تضاف إليها

وبكثرتها مع هذا لم تستوعب تلك العنق التي اصطاحت على حصّة عليّ من الدولة  
الإسلامية فقد أصبحت إليها على أخرى من أصبحت إليها أكثر العلل التي تبطل  
بها دولة أو حكومة، وهي اعتمادها على مواردها على غيرها

فكانت مورد الشام هي الشام نفسها من حراج أو ابلد و تجارة أما موارد  
الحجاز فقد كانت بعيدة منه ومن دخلت في صاعته وحنحت إلى القائم بالامر فيه  
وكانت مصر والسودان من حصّة عليّ ولكنه لم يتفجع بمصر كثيراً لتعاقب الولاة  
فيها، ولم يستفد بالسودان كثيراً لتعاقب لغت و بعاتر عسها. وحسبك من هذا  
داعية فني وياغت مخافة ومبطن أمن وطمانينة.

• • •

ويجب أن نذكر أن الحملة هي هذا التقسيم قليلة، وإن الحوادث هي التي  
خنارت لكل حصّة من الحصتين رعيمة وأشباه الناس به واقربهم إلى ولاية  
أمره و«كما تكبروا يول عبيكم» ولا محل في هذه القاعدة بحيل أو اختيار

فهم يكن أحد أشبه بقيادة المفاع المستبقة من معاوية، ولم يكن أحد أشبه من  
على بقيادة الشكوى التي تلمح بأصحابها إلى التعبد

إن شكاً أساس عليه قريش، فعلى كان يشكو منها ويض الضمير بحقدتها عنه  
وبكرائها لحقه، ويقول في كتاب من كتبه إلى أخيه « ودع عنك قريشاً  
ونوكاصهم في الضلال وتحويهم إلى شقاق، فإن قريشاً قد أجمعت على حرب  
أخيت إجماعها على حرب رسول الله ﷺ قبل اليوم. »

وإن جاءت صيحة الإصلاح ولتغيير عن طريق الدين على مذهب لحفاظ  
والقراء والنسك فعلى كان إمام أمر العلم والقراءة، وأحق من ينكلم بتفقه أو  
بفسير

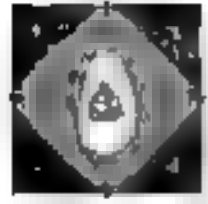
وإن جاءت من صميم الفقراء فعلى فقير، أو من تهافت الولاة على المال فعلى  
يضعف هذا استهافت كما يضعف الفقراء، عن رده فيه لا عن قلة الوسائل  
إليه

فما شك شكاً قط إلا وعلى له في شكوه، وكيف يحور من كهذا من قبله  
بذلة التي قاحت على التبرم يا حيا والطموح إلى التغيير « وأية حيلة له إلى  
جانب حيلة الحوادث وتوبييق المقادير؟

\* \* \*

كان على نموذج أصحابه الأعلى، وكان معاوية نموذج أصحابه الأعلى وكذا  
لأجل ذلك في موضع رشحتهما له الحوادث قسراً قبل أن يرشح له بإرادة مريد  
وما نحن بقادريين على وزن ابراهيم ولا على المقابلة بينهما في الرأي والعمل  
ما لم يستحضر هذه الحقيقة أبداً، وما لم يذكر أبداً أن أحدهما كان يعمل والحوادث  
حرب عليه وأن الآخر كان يعمل والحوادث عدة في يديه

\* \* \*



## البيعة

بويغ لعلی بالخلافه بعد حادثه من أفعح احوادث الد ميه فی تاریخ الإسلام، وهي معنن لخليفه عثمان بن عفان فی شیحوخته الواهيه بعد أن حصروه بين جدران داره، وكاد يعقته انظماً لو أمهيه العقلة بصعه أيام

وأفعح ما كان فی هذه الحارثه، أنها بلاء لا يدفع وقضاء لا حيله لأحد فی تقائه، لأن المسئولين عنه كثيرون متفرقون فی كل جانب يناصره او يعاربه فبذ امتنع الاعداء لم يمتنع الأصدقاء، وإذا بطل الشر الذي فيه اختيار لم يبطر الشر اسدى لا اختيار فيه، وربما كان حسن النية وسوء النية هما صيوس متساويين، فمن الأعمال المؤسفة اتى عجالت بالفاجعة أعمال كثيره بدرت من عثمان نفسه، أو لعله أعدم عليها بعد قصد ومراجعة، وليست هي فی تحصيلها ولا فی سوء مقبتها بأهون من أعمال الأعداء.

محدث السور الأولى من خلافة عثمان على خير ما كان يرحى لها أن تفصى فی عهد خليفة

ثم تعبرت الأحوال فجأة من جانب الراعى ومن جانب الرعية، لأسباب لم تكن طارئة ساعة ظهورها، وإن ظهرت عواقبها طارئات.

وتتعدد الاسباب التى أوجبت ذلك التعبير بعد اسسواب الأولى، ولكنها قد تنحصر فی سببين اثنين جامعين لغيرهما من الأسباب العديدة، وهما إمعان الخليفة فى استيخوخة، واستمرار الأعوان لما بمصوابه من بين الخليفة وبين الرعد والمقاع

ولقد كتبت الأسفار المطولات فى إحصاء المآخذ عى عثمان رضى الله عنه وكتبت الأسفار المطولات فى تبرئة الخليفة من تلك المآخذ أو الاعتذار به بأحسن الأعداء وتفسيرها على أحسن الوجوه. لأن المسألة خرجت من عداد المسائل التاريخية، وانتقلت إلى ميدان السراح بين الأحزاب والمذاهب وأقوييل الحدس والحجاج. فجعلها الشيعةيون وأهل السنة تريعة إلى تأييد مذهب وإكبار مذهب

في الخلافة والخلعاء، وروح لأولوي يجالعون في الاتهام كما يجالعون الآخرون في الدفاع، ولا طائل هنا من شرح هذا ودك، ولا هو مما يقتضيه كلامنا الآن وإنما المرجع فيه إلى تارسع عثمان.

إلا أنما احتري هنا بالإشارة إلى التدمير الذي ثار الفتنة، والإلزام بأساياه عند أصحابه فمما لا شك فيه أنهم تدمروا لأسباب تثيرهم وإن طار الشك ولحدس حول بصيبيهم من الخطأ والصواب

أهم هذه الأسباب، أنه خالف بعض السنن التي اتبعها النبي عليه السلام في لأداء الصلاة، وأنه أدنى أساساً من أقاربه كان رسول الله عليه السلام عد أقصاهم عن المدينة. فاستدعاهم إليه بعد استخلافه وأعدق عليهم المح وال أموال وأنه أطلق العنان لأبناء أسرته في الولاية والعمالة، ومنهم من اتهموه بإقامة الصلاة وهو سكران وأنه منح سفيان بن حرب مائتي ألف درهم ومنح الحارث بن الحكم روج ابنته عائشة مائة ألف درهم من بيت المال، وأنه توسع في بناء القصور، وحرم بعض الصحابة، وصرب بعضهم على مشهد من الملأ صرب إهانة وإيحاء.

ولم تنقص سوان على هذه الحان حتى كثر المترفعون من حاسب والمتربون من حاسب آخر، وشاع بين الحاسبين ما يشيع دائماً في أمثال هذه الأخوان من الملاحاة والبعضاء والتزيد بالتهم والسجاجة وإصابة الأوهام إلى الحقائق هي خلق ثرائع الخلاف والشحناء

ويدل على خطر مسئلة الثروة في هذه الفتنة، أن العباس تألبوا على الخليفة مره فأرسل في طلب علي ليصرفهم عنه، فلما قدم إليه استأذنه في إعطائهم بعض الرهد العاجل من بيت المال فاس به . فاصرفوا عن رعاء الفتنة، وهذه هي حين

ثم موافق المدمرور من الولايات إلى المديين محبدين وغير محبدين. وتولى رعاء التدبير في بعض الأحيان جمعة من أجلاء الصحابة، كتبوا صحيفة وقعوف واشهدوا فيها المسلمين على ماخذ الخليفة . كتب حمها عمار بن ياسر إليه، عصب وريزه مروان بن الحكم، وقال له «إن هذا العبد الاسود قد جرأ عليك العباس . وإنك إن قتلته مكالت به من وراءه» فصرهوه حتى عشى عند

وهي مرات أخرى، كان الخليفة يصغي إلى هذه الشكايات ويندم على ما  
اجترحه أعوانه بعلمه أو بغير علمه، ثم يعبر انتوبة إلى رعاياه ويؤكد لهم الوعد  
بإقصاء أولئك الأعوان وإخلاقهم من أعصابهم من يرصى المسلمين، ويرصى الله.  
ثم يعليه أولئك الأعوان على مشيئته، فيقبضهم حيث كانوا ويملي لهم فيما  
تعودوه من لترف والنعامة، وعلى رؤسهم مروان بن الحكم بعض أولئك الأعوان  
إلى المسلمين، حتى من أهل الخليفة المعريين.

وكان بعض الوفود يشكون ولاتهم فإذا عادوا إلى بلادهم تلقاهم أولئك الولاة  
بالأذى وقتلوا بعضهم ضرباً على سلا من الشكين الذين ينتطرون الإصاف.  
فيعود المصروبون إلى الشكوى، وينصرهم أحلاء الصحابة عند الخليفة،  
ويسألونه أن يولى عليهم غير واليهم المسمى إليهم. فإذا توجه الوالي الجديد إلى  
مكانه، بدأ في الطريق رسون يحمل خطباً للوالي المزعول، يأمره فيه بقتل من يقد  
إليه من حاملي الشكوى وحاملي كتاب الولاية ويقره في مكانه.

حدث هذا مع وفد مصر واختلفت الأعوام في نأويله من متهم للخليفة  
ومنهم لعنانيه على الخلافة، ومتهم لوفد الشكوى الذي عثر بالخطاب، ومتهم  
لمروان بن الحكم عنصر السوء في هذه المناساها كلها وهو أولى لأعوان  
بالترحيح والتصديق، إذ كان أيسر شيء على مروان لو كانت يريثا من هذه المكيدة  
أن يكشف حقيقتها، يسؤال الإعلام حاملي الخطاب، وفي كشف هذه الحقيقة إبراء له  
وتعير لسلطان الخليفة، وفصيحة لأعدائه، وإدخاله لحجة الفتنة ودعوة الإثارة  
والبحريض وبكاه أهم السؤال، وفتح من ثيرة نفسه بقذف التهمة على  
متهميه

، ، ،

وضل الخليفة والثوار يشتبكون ويحاحرون لا هم في حرب، ولا هم في  
سلام

وكلما تحاحروا بعد اشتباك صدر بالشر، راد الخليفة صعباً، وراد الثوار  
صراوة، ورد السوحس بينهم استفحالا واتسع مع التوجس محل السعاية  
والإرحاف بين العريفتين حتى بلغ الكتاب أحله.

وبوسط على بين الحليف والثوار فاستمهلهم الخليفة ثلاثة أيام يرد عنها  
العمال ويحل العمال المكروهين.

فانتظر الثوار هذه الأيام لثلاثة تلبية لصبيحة على وصهم من سيء الص  
ويرى أن الخليفة إنما يستمهلهم في انتظار المدد الذي طلبه من الأمصار  
ومقصود الأيام الثلاثة على غير جدوى

وبفاقمت الفتنة وأحاط الثائرون ببيت عثمان لا يقعون في هذه الكره لا  
أن يعرض، أو يسلمهم مروان بن الحكم، أو يعزوه عبوه

وحاء في رواية «شدة بن أوس» أن علياً رضي الله عنه، خرج من منزله يومئذ  
معتماً بعمامة رسول الله متقلداً سيفه أمامه الحسن وعبد الله بن عمر في نفر من  
المهاجرين والأنصار حتى حملوا على الناس وفرقوهم، ثم دخلوا على الخليفة  
فسلم عليه عليٌّ.. وفار بعد تمهيد وحير « لا أرى القوم إلا قاتلك، فمرنا  
بمنفك.. فقال الخليفة «أنشد الله رجلاً رأى لله حقاً، وأقرأ أن لي عليه حقاً، أن  
يهرق في سببي ماء محجمة من دم «ويهرق» منه هي» فأعاد على القول، فأعاد  
عليه هذا الحوار. ثم خرج من عنده إلى المسجد، وحصرن الصلاة فنادوه «باب  
الحسن تقدم فصل بالقدس» فقال «لا أصي بكم والإمام محصور، ولكني أصلي  
وحدى»، ثم صلى وحده وانصرف إلى منزله، وفرك ابنه مع أسياء زمرة من  
الصحابة في حراسه دار الخليفة، ليعلم الثوار أنهم معتدون على كل ذي خطر في  
الإسلام إن وصلوا إلى الخليفة باعتداء. عساهم إن علموا ذلك أن يتهيبوا المركب،  
فلا يسرعوا بالشرا غاية مفرغه

إلا أن الثوار علموا أنهم مأخوذون بالانتظار مغلوبون بالمطاوله فتسوروا  
الدار وولغوا في دم طهر لو هن على صاحبه أن تسفك الدماء في سبيله يعر  
عليهم أن يسفكوه

\* \* \*

وللإفصاة هي معتل عثمان وعيره هذا المقتن، مكان غير هذا المكان وكتاب  
غير هذا الكتاب

فإنما نحن في صدد الموقف الذي وقفه علي من هذه الجريمة، وما نجم عنه هذا الموقف من خلقه ورأيه وسريته وجهه وإنما بعينها هنا أن نسأل: أكن عليه وير في هذه الجريمة؟ أكن في مقدوره عمل صالح يعمله لإبقاء عثمان من هذا المصير؟

ونحن لا نسأل هذا السؤال بمرح في حو به إلى جدل المحادلين وأخصاص المادحين والقادحين. فقد سأل في الحلاف على هذا السؤال دم عزيز ومداد كثير، وليس علينا نحن أن نريد قطره أو قطرات على هذا لبحر المسجور الذي لا رى فيه نيس عيب هذا لأننا نستطيع أن نعبه إس حفيقة مائلة لمن يشاء أن يراها، وفيها العنى ولو بعض الغنى. عن الإسهاب في السؤال والجواب

فالحقيقة التي لا يصور فيها الريب، أن علنا رضى الله عنه بم يكن أقدر على احتساب هذا المصير من معاوية أو من عثمان نفسه، لو شاء عثمان أن يستمع إلى بعض الناصحين إليه

فقد كان معاوية والياً عزيزاً له حمد يرسله إلى الخليفة فيحميه في الشدة اللارمة وإن أباه، وكان معاوية يقول عند عثمان لم يكن لعل ولا لأحد من خلصائه، وكان هو أفس أن يحيل بعثمان إلى الرضا بالحرسة أو الرضا بالرحلة إلى مكة أو الشام، لو أراد.

وكان في وسع عثمان أن يرحل إلى مكة، وهي من له من المدينة، أو يرحل إلى الشام، وقد كانت مفتوحة له قرر أن تعلقها لفتنة ويمرر النوار في العصور أما على فقد كان موقفه أصعب موقف يحمله العقل في شك الأرمة المحفوفة بالمصاعب من كل جانب

كان عليه أن يكبح العرس عن الحماح وكان عليه أن يرفع العقبات والحواجز من طريق العرس، كلما حيل بينها وبين الاتصال

كان ماقداً لسياسة عثمان ويطايسه التي حجبته عن قلوب رعاياه. ناصحا للخليفة بإقصاء تلك السلطة وتبديل السياسة التي تريدها له وتغريه بانسبها وصم الأذان عن الناصحين له بالإفلاخ عنها

وكان مع هذا أوم من يطالب بالعودة كلما هجم الثوار على تلك النطقة،  
وهموا بإقصائها عنوة من جوار الخيفه

كان الثوار بحسبه أوم مسئول عن اسعى فى الإصلاح، وكان اخيفه  
بحسبه أوم مسئول عن تهدئه الحال وكف مدى الثوار

وتم يكن فى العالم للإسلامى كله رجل اخر يعانى مثل هذه المعصنة أنتى  
تلفاه من جانبيه كلما حاول الخلاص منها، ولا خلاص

وصاعف هذ الحرج الشديد الذى كان يلغاه فى كل خطوة من خطواته، أنه لم  
يكن بموضع لخطوة والقبول عند اخيفه حيثما رجب الإصغاء إلى رأى والعص  
بالمشورة ريمف كان مروان بن الحكم موضع الخطوة الأولى بين المقربين إليه  
لا يحرر من إحدى جناباته التى كان يحياها على الحكومة والرعية حتى يعود لى  
اخيفه فيوقع فى روعه أن علياً ربحوه من حلة الصحابة هم الساعون بين  
الناس بالكيد له وتأييد الثائرين عليه وإنه لا أساس له إلا أن يوقع بهم ويعرض  
عنه ويبتسب الأمان عند عشيرته وأقربائه ومن هم أحق الناس بسلطانه  
وَصَدَائِقُهُمْ رَغْبَةً فِى دَوَامِهِ

فى المؤتمر الذى جمعه لحايفة لمشاورة فى إصلاح الأمر وقمع لفنة، لم يكن  
على مدعوا ولا مطورا إليه بعين الثقة والمودة بن كان المدعوون إلى المؤتمر من  
أعدائه ولكارهين بصحة وهم معاوية وعمرو بن العاص وعبد الله بن نبي سرح  
وعبد الله بن عامر وسعيد بن العاص وهم فى حملتهم أولئك الولاة لذين شكاهم  
على وجمهرة الصحابة، وبرمت بهم صدور المهاجرين والأنصار

قال لهم عثمان «إن لكل امرئ وراءه وبصحاء، وإنكم ورائى وبصحائى  
وأهل ثقتى، وقد صنع لناس ما قد رأيتم وطلبوا إلى أن أعرض عمالى، ون أرجع  
عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبون ماحتشدوا رأيكم وأشيروا على»

قال معاوية «رى لك يا امير المؤمنين ان ترد عمالك على الكفاية لما قبلهم  
وبما خصص لك ما قبلنى»

رأى ربح يريد ن يحتفظ بولايته ولا يريد أن يعصب أحدا من اصحاب  
الولايات فى غير مصره.



وقال عبد الله بن عامر «رأيتك يا أمير المؤمنين إن تأمرهم بحهاد يشعلهم عنك، وإن تحمهم في المعاري حتى يدبوا بك فلا تكون همة أحدهم إلا نفسه.»

رأى رجل يريد أن يشغل الناس عن شكوى ولا يريد أن يزيلها، ثم هو لا يبالى أن يخلق جهاراً تسفك فيه الدماء في غير جهاد مطلوب

وقال عبد الله بن سعد «أرى يا أمير المؤمنين أن الناس أهل طمع، فأعطهم من هذا المال تضعف عليك قلوبهم.»

رأى رجل يشتري الرضا بالرشوة، ويستقي من يديه مدح

وقال عمرو بن العاص، وهو بين السخط على ولاية هاتهما واطمع في ولاية يرجوه «أرى أنك قد ركبت الناس بما يكرهون فاعترم أن تعزل فإن أبيت، فاعترم أن تعزل، فإن أبيت، فاعترم وامض قدماً»

رأى رجل عيبه على الخليفة وعيبه على الثوار، ولهذا بقي حتى تعرق المحمسون. ثم قال للخليفة حيث لا يسمعه أحد غيره «والله يا أمير المؤمنين لأنت أعر عليّ من ذلك ولكني قد علعت أن سيبلغ الناس قور كل رجل منكم فأردت أن يبلغهم قولي فينفوا بي فاقول ذلك خيراً وأدفع عنك شراً»

\* \* \*

وكان هؤلاء هم الوزراء والنصحاء وأهل الثقة عند عثمان ومن ورائهم مروان ابن الحكم يلازمه ويكفل لهم أن يحجب النصحاء عنه، وهي مخدمتهم على وإخوانه. ثم تعرفوا بمؤتمرون وقد رد عثمان كل عامل إلى عمله، وأمره بالتصديق على من قبله

فكانت حيلة عليّ في تلك المفصلة العصبية حد قبيلة وكان لحول الذي في يديه أقل من الحيلة.

غير أنه مع هذا قد صنع عابة ما يصنعه رجل معلق بالنقيصين معصوب بالنبعيين، مسنول عن الخليفة أمام لثوار ومسنول عن لثوار أمام الخليفة

جاءه الثوار مرة من مصر خاصة، يتحطون الخليفة إليه ويعرضون الخلافة عليه فلقبهم أسوأ لقاء، وأبدرهم لنن عدوا إليها ليكوبس حزاؤهم عنده وعند الخليفة القائم، حراء العصاة المفسدين في الارض

وجاءوه مرة أخرى وحجتهم ناهضة وديبل الذهب التي يتهمون بها بطانة عثمان في أديهم جاءوه باحطاب اندي وحده في طريق مصر مع علام عثمان، يأمر عامه يقتلهم بعد أن وعدهم خيرا وأجابهم إلى توبيه ابعامل الذي يرصيههم هم تخدعه حجتهم الناهضة، ولم يشأ أن يصي لهم في ثورتهم وحتجأحهم من حراء ذلك الخطاب امشكوك فيه، وحطهم متهمين سنويين بعد أن كانوا متهمين سائلين، فقال لهم «وهم السى جمعكم في طريق واحد، وقد خرجتم من المدينة متفرقين كل منكم إلى وجهة»

• • •

وكانت حيرة على بين التقريب والإيعاء، أشد من حيرته بين الخليفة والثور فكان يوم نارة بمبارحة المدينة ليكف الناس عن الهدف باسمه ويستدعى إليها ناره ليردع الناس عن مهاجمة الخليفة، فمما تكرر ذلك، قل لابن عباس اندي حمل إليه رساله عثمان بالخروج إلى ماله في يبيع «يا ابن عباس ما يريد عثمان إلا أن يحمى حملاً ناصحاً بالعرب - أي الدلو - أقبل ودير بعث إلى أن أخرج، ثم بعث إلى أن أقدم، ثم هو الار يبعث إلى أن أخرج. والله لقد دهب عنه حتى خشيت أن أكون أشماً»

تم بلع لسير الزبي كما قال عثمان رضى الله عنه، فكتب إلى على يذكر له ذلك ويقول: «إن أمر الناس ارتفع في شأنى فوق قدره ورعموا أنهم لا يرجعون دون دعى، وطمع قى من لا يدفع عن نفسه

هين كنت مأكولا فكى خير أكل ولا هادر كسى ولما أمرق

معد عى، وجهه في إنقاذ الخليفة جهده، وبكنه كان يعالج داء استعصى دواؤه وابتلى به أطباؤه، فكلهم يريد تفسيراً يأتي من قبل لغيب أو يأتي من فس الآخرين، ولا يعير شيئاً من عمله أو مستطاعه، ولعل لخليفة نو شرع في التغيير «مرجو يومئذ بما أجبى عليه عظيم جدوى، لغوات اوانه وانطلاق الفتنة من أعنته، وامتناع التوفيق والصفاء بعد ما وفر في نفوس ولعظت به الأقواء

وعد الخبيفة وعده الأخير ليصلح الأحوال ويبدل العمال

وأحاطت به بطائفة كدأبها في أثر كل وعد من هذه الوعود، تنهاه أن يتحرره وتخيفه من طمع الناس منه، إن هو أخذ ما وعدهم حين توعدوه

وكانت المرأة أصدق نظراً من الرجال في هذه العاشية التي تحصل فيها العقول. فأشارت عليه امرأته السيدة مائلة باسترقصاء علي والإعراض عن هذه البطانة. ولم يكن أيسر على بطانته من إقصاءه بصعف هذا الرأي بعد سماعه من امرأة صعيقة فكان مروان يقول له «والله لإقامة علي حطينة تستعير الله منها أحمل من توبة تعرف عليها»

وكان هو يأذن له أن يخرج ليكلم الناس، فلا يكلمهم إلا بالزجر والإصرار كما قل لهم يوماً «ما شأكم قد اجتمعتم كأنكم جئتم لشيء، شأنت الوجوه جئتم تريدون أن تترعوا ملكنا ارجعوا إلى مدارككم، هذا والله ما نحن معلومين على ما هي أيدينا»

إذن وصلت الرواية، ولم يبق إلا لحظة طيش لا يدري كيف تبدأ، ولا يوتى لأحد إذ هي بدأت أن يقف دون منتهاه

\* \* \*

هجم النوار على باب الخليفة، فسمعهم الحسن بن علي وابن الربيع ومحمد بن طلحة ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وطائفة من أبناء الصحابة.

واحتلدوا فمصعهم عثمن، وقال لهم «أنتم في حرج من بصرتي» وفتح الباب ليصيح الحلال حونه ثم قام رجل من أسلم يحاشد عثمن أن يعتزل، فرماه كثير بن اصيلت الكسبي بسهم مقتنه، فحى حشور الثوار يطلبون القتل من عثمن، وعثمن عياشى أن يسلمه ويقول لهم «لم أكن لأقتل رجلاً بصري وأنتم تريدون قتلى» وعز على الثوار أن يدخلوا من لباب أسى كن قد أعلق بعد فتحه، فاجتمعوا الدار من الدور التي حولها وأقدموا على هلعهم الكراء بعد إحكام كثير

و لم تقع الواقعة في هذه اللحظة الطائشة، لوفعت هي لحظة غيرها لا يدري كيف تبدأ هي الأخرى. فهنا هي بادرة واحدة من رجب واحد تصوق وراءها كل

محتج حور الدار من مهذبين أو المدافعين، ولا أكثر من البوادير بين ثوار لا يجمعهم رأي، ومدافعين لا يصطبغهم عمام

ونقل الحبر إلى المسجد، وفيه على حالس في نحو عشرة من المصلين، فراحه مطران قدم وسأله «ويحك ما وراءك؟» قال «وانله قد فرغ من الرجل» فصاح به «تباً لكم آخر الدهر» وأسرع إلى دار الخيفة المقتول. فلطم الحسن، وصرب الحسين، وشتم محمد بن طلحة وعبد الله بن الربير وجعفر يسأل ولديه «كيف قتل أمير المؤمنين، وأنتما على الباب؟» فأجاب طلحة «لا تصرب يا أبا الحسن ولا نشتم ولا قلن، لو دمع مروان ما قتل».

• • •

عن سيف بن عمر عن جماعة من شيوخه «بقيت المدينة خمسة أيام بعد مقتل عثمان، وأميرها الغافقي بن حرب يلتمسون من يحببهم إلى القيام بالأمر، ولمصريون يلحون على علي وهو يهرب إلى الحظمان<sup>١</sup>، ويطلب الكوفيون الربير فلا يجدونه، واليصريون يطلبون طلحة فلا يجيبهم، فقالوا فيما بينهم لا نولي أحدا من هؤلاء الثلاثة فمضوا إلى سعد بن أبي وقاص فقالوا إنك من أهل الشورى فلم يقبل منهم ثم راحوا إلى ابن عمر فأبى عليهم، فحاروا في أمرهم ثم قالوا إن نحن رجعنا إلى أمصارنا بقتل عثمان من غير إمرة اختلف الناس في أمرهم ولم نسلم فرجعوا إلى علي فألحوا عليه، وأخذ الأشتري بيده وبايعه وبايعه الناس. وكلهم يقول لا يصبح لها إلا علي، فما كان يوم الجمعة وصعد على المنبر، بايعه من لم يبايعه بالأمر وكان أول من بايعه طلحة بيده الشلاء، فقال قتل «إنا لله وبالله رجعون»، ثم الربير ثم قار الربير، إنا بايعت علي والنج علي عني واسلام».

وهذا الخبر على وجارته، قد حصرنا أسماء جميع المرشحين للخلافة بالمدينة عند مقتل عثمان. وربما كان أشدهم طلب لها طلحة والربير، الدار أعليا الحرب على علي بعد ذلك. فقد كنا يمهذان لها في حيدة عثمان، ويحسبان أن قريشا قد أجمعت أمرها ألا يتولاها هاشمي، وأن علياً وشيك أن يدار عنها بعد عثمان كف يد عنها من قبله، وكانت السيدة عائشة تؤثر أن تقول اخلافة إلى

١) الحظمان

واحد من هذين أو إلى عب الله بن الربير لأن صلحة من قبله تم والربير روح  
أختها أسماء، وفي تأييد لصدقة عائشة لواحد منهما مساعداً أمل كبير في النجاح  
على أن الرأي هذا لم يكن رأي قريش، ولا رأي بني هاشم فلو أن عثمان مات  
حتف أبوه، ولم يذهب ضحية هذه الثورة لجار أن تجتمع قريش فتعقد البيعة  
لخليفة غير علي بن أبي طالب، وجار أن يختلف بنو هاشم فلا يجتمع لهم رأي  
على رحل من رجالهم الثلاثة المرشحين للخلافة، وهم عقير، وعلي، وابن عباس

• • •

ولكنها الثورة الاجتماعية التي تشد رحلتها دون غيرها ولا محيد بها عنه فإن  
ترددت أسباب، فذاك هو التردد العارض الذي يرد على الخاطر لا محالة قبل استراق  
على رأي جازم ثم لا معدل للثورة عن الرجل الذي تتجه إليه وحده على الرغم منها  
عظيمة والربير، كما يشبهان عثمان في كثير مما أخذه عليه المتحرجون في  
الدين، وتورد له العقراء المحرومون كما يحوصل في المار، ولا يفهمان الرهد  
والعلم على سنة السابقين المترممين، فإذا طلب الثائرون خليفة على شرطهم  
ووافق رحلتهم فما هم بواجديه في غير علي بن أبي طالب، وقد قال بحق «إن  
العمامة لم تباعني لسلطان عاب ولا تعرض حاصر» ولو شاء لقال عن الخاصة  
الذين لا يطمعون في الخلافة مقالته عن العامة في بغيرهم إليه بخير رهبة ولا  
رغبة فقد كان أولئك الخاصة جميعاً على رى العامة في حكومة عثمان  
وبطائنه وإن أخفى بعضهم بومه ولم يذهب بعضهم في اللوم مذهب الثوار في  
المرق وسفك الدماء.

رعتقد كما أسلفنا أن هذه الحقيقة هي أولى الحقائق باستوكيد والاستحصار،  
كلما عرض أمر من أمور الخلاف والتردد في خلافة علي رضي الله عنه فإن هي  
فهمت على وجهها، بكل ما عداها مفهوم الجواظ والظواهر مسسوق الموارد  
والمصادر وإذا هي لم تفهم على نوحه الأمل أن تركت حاسب، ويحث الباحثون  
عن العلل والعوالب في غيرها فالعهد كنه عامص مجهول، والموازين كلها  
مبغوضة سواء في تقدير الرجال أو تقدير الأعمال وجار جنتن يرعى على  
بالخطأ ولا خط عبده يصححه غيره في موضعه، وإنما هو حكم الموقف الذي

لا محيد عنه وحاد كدك ن يحصر خصومه فصل لصواب ولا صواب عندهم  
لأنهم مضطرون إلى ورود هذه الأمور فكروا فيه أو طرأوه عتسفا بعير تفكير

• • •

فهم تكن المسألة خلافا بين على ومعارية على شيء واحد، يحسم فيه الخراج  
بانتصار هذا أو ذاك

ولكنها كانت خلافا بين نظامين متقابلين وعالمين متنافسين أحدهما يتمرّد  
ولا يستقر، والآخر يقبل الحكومة كما استحدثت ويميل إليها إلى انقضاء والاستقرار  
أو هي كانت صراع بين الخلافة الدينية كما تمثلت في على بن أبي طالب،  
والدولة الدينيّة كما تمثلت في معاوية بن أبي سفيان

وليس موضع الحسم فيها أن ينتصر على فيحكم في مكان معاوية، أو ينتصر  
معاوية فيحكم في مكان على، بل موضع الحسم فيها مبادئ الحكم كيف تكون  
إما تعب واحد منهما على خصمه؟ أتكون مبادئ الخلافة الدينية أو مبادئ الدولة  
الدينيّة؟ أتكون مبادئ الورع والزهادة أو مبادئ الحياة على أساس الثروة  
الحديثة، كما توزع بين الأمصار وتفرقت بين السراة والأجناد والأعوان؟

فلو أن علياً ملك الشام ومصر والعراق والحجاز، وجرى في سياستها على سنة  
أصحابه من الحفاظ والقراء ومنكرى البذخ والإسراف ليقبت المشكلة حيث كانت،  
ولم تكن هزيمة معاوية لا ربثما ينحدر لدولة مبارح آخر يحاول الغلبة من حيث  
فش معاوية

ولو أن معاوية ملك المدينة إلى جانب ملكه، وجرى في سياستها على سنة  
الحفاظ والقراء بما أوصاهم ولا انقاد له حد من أشياءه

فاحسم حق الحسم هنا، أم هو تعليل مبادئ الخلافة ولا حيلة لعلى ولا  
لمعاوية في علاج الأمر على غير هذا الوجه، لو جهد له جهد الطرفة

• • •

وقد كان الموقف بين الخلافة والملك ملتبساً متشابكاً في عهد عثمان كان  
نصف ملك ونصف خلافة، أو كان نصف عامة دينية ونصف إمارة دنيوية،

هو جب أولاً أن يتصح الموقف بيدهما، وأن يروا الالتباس عن فلق صريح  
ووح وقد زار الالتباس، وتقابل الصدان اللذان لا يتفقا، أن يبيع الخلاف  
هداه وإن يزال قائماً حتى تكتب العينة لهداً من المدائن وحكم من الحكيم،  
وليس لعل أو معاوية على التخصيص

هذه هي العلة الكبرى التي تطوى فيها جميع العلل الطاهرة  
وخلق بكل علة أخرى أن تكون تعلقه موضوعاً يظهر صاحبها غير ما يبطن،  
أو يندفع في زعمه وهو غافل عن معناه

خذ لذلك مثلاً عنه طلحة وأصحابه الذين ثاروا على علي بن أبي طالب يوم عثمان. وهم  
لم يدفعوا عنه في حياته بعض ما دفع علي عليه. وقد كان عثمان كثير ما يقول: «ويبي  
من طلحة، أعطيته كذا وكذا ذهباً وهو يروم دمي». البهم لا تمتعه به ولقه عواقب بعينه.  
وساء ظن الناس بطلحة على عثمان حتى حدث بعضهم أنه رآه يوم  
مقتله يرمى أساراً، ويقود بعض الثائرين إلى الدور المجاورة ليهبوا منها إلى دار  
عثمان، وهو حديث يعتقد إلى السند الوثيق، ولكنه يتم على ظن الناس بصدقة  
طلحة للخليفة المقتول.

وخذ لذلك مثلاً حجة معاوية حين علل ثورته باتهام علي في دم عثمان، وعلل  
اتهامه لعل بتقصيره في القود من الثائرين. وهم ألوف يحملون السلاح، وهو يوم  
يسكر بعد إلى سبطان يعينه على يقود من هؤلاء الألوف المسلحين، فماذا صنع  
معاوية يقاتلي عثمان حين صار الملك إليه، ووجب عليه أن ينفذ العقاب الذي من  
أجله ثار واستباح القتال؟ إنه اتبع علناً فيما صنع، وأبى أن يذكر القار لمقيم  
النفذ، وقد ذكره به وألحقوا في تذكيره، ولقد كان أول ما سمعه يوم رار المدينة  
ودخل بيت عثمان صيحة عائشه بنته وهي تيكى «و أباها» فلم يردده هذه  
الصيحة العثيرة إلا إصراراً على الإعضاء والإغفاء، وقال لها يعريها «يا بنت  
أخي إن الناس أعطونا طاعة وعطيناهم أمناً، وأظهرنا لهم حلاً نحتة عصب،  
وأظهرنا لها صاعة تحتها حقد، ومع كل إفسار سبعة وهو يرى مكان أنصاره. فإن  
بكتنا بهم بكتوا بنا، ولا بدري أعلياً تكون أم لنا ولأن تكوني بذت عم أمير  
المؤمنين خير من أن تكوني امرأة من عرصة المسلمين.»

ولو كانت الثورة كلها من احد عثمان لما انتهت بهذا التسميم الهين. ولكن  
عذر على هي بداية المحنة أعظم حجه، وأحق بالقبول

\* \* \*

أو خذ لذلك مثلاً على عمرو بن العاص وقد كان أول الباصحين لعثمان  
بالاعتراض، من كان يحطّ عثمان ليسترضى الناس، وعمرو يصبح به من صغوف  
المسجد «تق الله يا عثمان فانك قد ركبت أموراً وركبناها معك. فتب إلى الله  
نتب» ثم ترك عثمان في المدينة بين مؤتمرين به ومضين إلى فلسطين، وسمع  
وهو يقول «والله إني كبت لألقى «راعي فأحرصه على عثمان»

فكل علة للثورة على خلافة علي، فهي تعس موضوع يتخذه به قائله أو  
يتخذ به غيره. إلا تلك العلة التي طوت فيها جميع العلل ظاهرها وباطنها  
وصريحها وسكوبها وهي الخلاف بين حادى الخلافة الدينية ومبادئ الدولة  
الدينية، ضرورة نفس بين هاتين الخطتين وإن كان في ظاهره فصلاً بين  
وحلين

فلما بويغ على بالخلافة، كانت هذه البيعة إياداً بانقسام الحقبة بين اثنين  
للصراع الأخير، أو كانت إياداً باصطفاف المتسابقين إلى عاية لابت من بلوعها  
ولن تنحصر على ابدال عاية لهد السباق لصحوم غير انتهاء انخلافة أو انتهاء الملك  
على النحو الذى تهيأ به عناصر البطام الاجتماعى الجديد  
فأما انتهاء الملك في بدايته، فقد كان بعيداً. بل كان عسيراً جداً في تلك الاونة  
كما يعسر انطفاء النار وهي تهب بالاشتعال.

وأما انتهاء انخلافة فهو الذى كان، وهو الذى كان منطوقاً أن يكون، وس يكون  
غيره بمنطور فمن الفصول يوم على على شىء من لأشياء تتي أفصت إلى هذه  
الخاتمة، وهي محتومة ليس عنها محيد.

إذ لم يكن صبيحاً أن يصمد الناس على سنة النبوة أكثر من جيل واحد، تنوب  
بعده الطبائع إلى فطرتها من مشاة الخليقة لأولى، وقد يتفق كثيره أن يغمرها  
جلال النبوة أو جلال الخلافة النبوية وهي في إبان النصارى والحمية الدسنة،  
متنسى المطامع وتسهب عن الحزازات وتستعذب الأثم ولقاء إلى مدى الطاقة



الإنسانية، ولكنها تبلغ مدى الصداقة للإنسانية بعد حين وتفر عن النهوض من  
قمة إلى قمة، فتركز آخر الأمر إلى الأرض لسواء حيث لا حائر ولا مستهص، إلا  
محرارة الطبيعة في محاربتها التي لا يشق عنها، وإن المصلحين ليرضون عادة  
أرضاً إذا هي حققت من إصلاحهم عند ذلك وارع مهابتها بعد صلاله عمياء،  
ويردعها بعد جماع مريد، ويكفكف من عوائدها ما كان من قدر منطفاً بغير  
عبار

وقد نظر النبي عليه السلام بعين العيب إلى هذا المصير فقال: «الخلافة ثلاثون  
عاماً ثم يكون بعد ذلك الملك».. وأنبأ بأقسام انفرق وتشعب الأهواء، وكأنما ينظر  
إلى ذلك بعينه صوات الله عليه.

• \* •

وسمع على من اليوم الأول في خلافته أحسن السياسات التي كان له أن  
يتبعها، فلا يعرف سياسة أخرى أشار بها باقده أو مؤرخوه ثم أقاموا الدليل على  
أنها خير من سياسته في صدق الرأي وأمن العاقبة، أو أنها كانت كفيلة  
باحتراب المارق التي سافقه الحوادث إليها

فمن اللحظة الأولى، أخذ في تجديد قوى الخلافة بديمية التي لا تود له بغيره  
فعزز الولاة الدين استباحو العتائم المحظورة، وتمرغوا بالدنيا، وجمعوا  
وأصنعوا رعاياهم في بيت مال المسلمين، وأثاروا على عثمان سحق السواد  
وسخط الفقهاء المتخرجين والحفاظ بحورين على مسائل الدين

ورد انقطاع التي ورعتها بطرسة عثمان بين المقربين ودوى الرحم بصرفتها  
عن وحوها التي جعلت لها من إصلاح المرافق وإعائه امفتقرين إليها على  
شرعة الإنصاف والمساواة

ورجع إلى خطة أبي بكر، عمر في تحبيب الصحابة الطامحين إلى الإمارة فتبه  
أبوليات، مخافة عليهم من عوائدها رابعاً لهم من دساس الشيع والعصبيات  
فمن طائفة طلحة والريبر بولاية العراق وإيمن قال لهم «من تبعنا معي لأس  
يكما» وسأل «بن عباس» «ما نرى» فأشار بتولية الريبر لبصرة وتولية طلحة  
الكوفة قال على «ويحك إن العراقيين بهما الرجال والأموال ومتى تمسك أرقاب

الباس يستعيلان السفيه بالطمع ويصربان الصعيف بالبلاء، ويقويان على القوى باستطون، ولو كنت مستعملاً أحدا لصره أو نفعه لاستعملت معاويه على الشام ولولا ما ظهر من حرصهما على الولاية كان لى فيهما رأى»

نعم، إن هذه السياسة أعضبت مافسيه وطاللى الصفقة الدنيوية على يديه ولكن السياسة الأخرى كانت تعصب أنصاره ولا تضمن رضا المساعسين ودوامهم على الرضد وبوقاق بينهم فى تأييده وكانت تحالف عقيدته التى يتدين بها نفسه وأقرب الناس إليه، وتحالف وعده وعقيدة الناس فيه ولن يكون مالكاً غالباً سياسة الملك على كل حال، فإن لم يكن خليفة فما هو بشيء وإن كان خليفة وملكاً فهى حطة عثمان اتى بم تستقم قط على وجه من وجهيها ومصيرها معروف، وإن كان خليفة ولا يخساره فى ذلك فكل ما صبح فهو الحكمة كأحسن ما تراض له الحكمة، وهو السداد كأقرب ما يتاح به السداد.

وعلم ر قريشاً لا ينصرربه، فمقل العاصمة من المدينة إلى الكوفة لأن قريشاً كانوا هاشميين وهم لا ينفقون على بيعته وقد تركه أمههم إليه ورحل إلى معاونة طمعا فى رعه، أو كانوا أمويين وهم حرب معاوية وأهل عشيرته وبنيه، أو من تيم وهم حرب طلحة، أو من عدى وهم يؤثرون عبد الله بن عمر بن الخطاب، أو من قبائل أخرى، وهم كما قال «قد هربوا إلى الأثر» فباد أقام بينهم فهو معهم بين أناس لا ينقطع لهم طلب ولا يضمن لهم ولا.

. . .

ولم يصر أناس معدوده على مبايعه الحليف الجديد حتى سقطت صفوف الحجار كله به أو عليه فكان مع جميع الشاكين لأسباب دينية أو سياسية، وكان عليه جميع بولاة الدين انفقوا فى عهد عثمان، وجميع الطامعين فى الانسحاق بالولاية والأموال العامة وحالب الخلافة الجديدة بينهم وبين ما صنعوا فيه

وعلى رأس هؤلاء طلحة والزبير

فحشدوا حموعهم إلى البصرة، وصحبتهم السدة عائشة لأنها كانت قرعاً فى خلافة صبحه لقبها ابن عباس على حقرة من امدينة وهو أمير على الحج من

قبيل عثمان ولما يرل قائما بالخلافة، فهاب له ياس عبس أشدك الله هابك  
قد اعطيت لسانا إرعيلاً - أي ماضياً - أن يحذر عن هذا الرخص تعسى عثمان  
وأن تشكك فيه البس فقد بادت لهم بصادرهم وانجحت ورفعت لهم الممار  
وتحببوا من البلدان لأمر قد جم وقد رايب طلحة بن عبيد الله قد اتخذ على بيوت  
الأموار والحرائن هفانج فإن يل يسر بسيره ابن عمه ابى بكر رضى الله عنه  
فأجبتها ابن عبس «يأأمه لو حدث ما هرع البس إلا إلى صاحبها» أي على  
فقال «إنيها عنك إني لست أريد مكابرتك ولا محادلتك»

عما يبيع على في المدينة لم تكن من أنصاره ولا مع الباقين على الحيدة بينه  
وبين خصومه ولعلها لم تنس بعد نصيحته للنبي عليه السلام في مسألة الإفك  
التي قبل إنه أشار فيها بتصديقها فخرجت إلى البصرة مع المطالبين بئار عثمان،  
وكانت هناك وقعة الحمل التي سُميت بهذا الاسم لاحتدام القتال فيها حول  
حملها وهودجها فانتصر على وعثن الزبير، ومات طلحة بجرح أصابه في  
المعركة، وحسم القتال بالصلح بين الفريقين في ابحار والعراق.

على أن هذا النصر العاجل، لم يخل من أفة تكدره وتذر بالمخاوف التي يوشك  
أن يلغها على في حربه بخصومه الباقين بعد موت طلحة والزبير وأقروهم  
معوية بن أبي سفيان صاحب الشام.

مقد كشفت وقعة لخم عن مصاعب القيادة في حيش من المتمردين  
والعندمرين مأنهم يستحمسون في عقبتهم، وهي فصيلة من عصائر الجيوش  
المقاتلة، ولكنهم من جراء هذه الحماسة نفسها عرصة للعار والتمادي في البدد  
واعحار قائدهم عن إتمام الروية وانتظر للفرص المواتية

بعد كان على بميل كذابه إلى مفاتحة لمارحين عليه في المهاربة أو  
انصالحه، وكان معه جماعة السنينة أتباع عبد الله بن سبأ وهم أخلص  
الباس له وأعيرهم عليه، ولكنهم لفرط عيرهم ولداهم هي عداوتهم لم يقنعوا بم  
دون انقضاء على خصومه، ولم يفلوا لتوسط في الصبح دون العلبة التي لاهوادة  
عنها هدموا القوم وأوهوا حذوة احرب قبل أن يفرع على من حدثت المهادنة  
والعريب بينه وبين أصدقائه الذين خرجوا عليه.

وكانت هذه أولى العزرات الكبار التي اعترفت بها جماعة المتمردين  
والمتدمرين في جيشه، ولم تر تنعاقب وتنفاقم عليه حتى منى بالعترة التي  
لا تعان.

وكان ذلك في وقعة صفين

فيه نضر بعد علمته في العراق، فلم يجد أمامه خصما يقف في طريق الخلافة  
إلا جيش معاوية بالسام، فعمد معه إلى خطته التي جرى عليها مع خصومه كعه  
حيث كانوا وكانت منزلتهم من الجاه والقوة، وبمعي بها خطه المسالمة والبدء  
بالانحياز بطالت الرسالة منه إلى معاوية، ومن معاوية إليه وفي مثل واحد  
مهما ما يغني عن كثير.

كتب إلى معاوية بعد وقعة الحمل، وقد سبقته كتب كثيرة من العديده «سلام  
عليك أما بعد، فإن بيعتي بالمدينة لرميتك وأنت بأشام، لأنه يدعى الدين  
ببيعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما يوجبوا عليه فلم يكن لشاهد أن يحتار  
ولا للغائب أن يرد، وإنما الشورى بالمصالحين ولأنصار فإذا حتموا على رحى  
وسموا إمام كان ذلك لله رضى وإن خرج عن أمرهم ردود إلى ما خرج عنه، فإن  
أبى قتلوه على اتبعه غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ماتولى، وصلاه جهنم  
وساء مصيرا، وإن طلحة والزبير بايعاى ثم بقضا بيعتهم وكان بقضهم  
كردهما، فجهدتها بعد ما عدت إليهما، حتى جاء الحق وظهر أمر الله، وهم  
كأهلهم فادخل فيما دخل فيه المسلمون، فإن أحب الأمور إلى قلوبك العاقبة،  
وقد كثرت في فتنة عثمان فإن رجعت عن رأيك وخلعت فبما دخل فيه  
المسلمون ثم حاكم القوم إلى حملتك وإياهم على كتاب الله وأما تلك التي  
تريدها - يعنى لخلافة - فهي خدعة الصبي عن الدين ولعمري لن يضر بك  
سوى هوك بنجدى أنرا قريش من دم عثمان وأعلم أنك من الصنف الذى لا يحسن  
لهم اخلافة ولا يدخلون في اشورى وقد بعث إليك وإلى من قبلت حرير بن عبد  
الله، وهو من أهل الإيمان والهجرة فابعه ولا قوة إلا بالله»

فرد عليه معاوية بما يلي

(١) أطلق معاوية وأمره من الأسير يوم فتح مكة

(السلام عليك. أم بعد، فلعمرى لو بايعك اسيرين ذكرت رأيت برىء من دم عثمان لكنت كأبى بكر وعمر وعثمان وبكك أغريت بدم عثمان وخدلت لأنصارى فأطعك الجاهل وعوى به الضعيف، وقد أبى أهل الشام لا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان. فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين، وإما كان الحارثيون هم الحكام على الناس ولحق فيهم، فما فارقوه كان الحكام على الناس أهل الشام، ولعمري ما حجتك على أهل الشام كحجتك على طلحة والزبير، إن كانوا بايعاك فلم أبيعك أنا وأما بصلتك في الإسلام وقربتك من رسول الله ﷺ فليس أدفعه».

ومن رد معاوية هذا تبدو النية الواضحة في فتح أبواب الخلاف واحدا بعد واحد. كلف أعلق باب منها يقى من ورثته باب مفتوح، لا ينتهى الخلاف بإغلاقه. فتسيم قتلة عثمان لا تكفى، لأن عبداً نفسه مثهم بالإغراء والبتدين، وبراءة على من هذه التهمة لا تكفى لأن المرجع بعد ذلك إلى اشورى والبطر في البيعة من حديث.

وشورى لحارثيين وسعراقيين لا تكفى لأن الحق قد خرج منهم إلى أهل الشام، وهم الحكام على الناس. لأنهم يحكمون لمعاوية ولا يحكمون لغيره.

ومن ثم، بطلت الحجج والرسائل كما تبطل كل حجة وكل رسالة عند ما يقاها بالناس غير ما يجوز في الصور.

وزحف على من الكوفة إلى صفين، ووحد جيش معاوية على الماء. منحاه عنه بعد أن أبى عليه معاوية أن يبحيه بغير قتال.

وبدت انبثارات حز ثم في كل خطوة يخطوها للسلام أو لقتال فلا يتحفر فريق من أنصاره للحرب حتى يثنيه فريق آخر يحرمها ولا يقوى بوجوبها، وتحجر القوم بيها وثمايين فرعه وتصاوبوا في وقعات شتى غامرت بها طائفة من هه وطائفة من هنأ، وقلع اشبك في الحيشان في رقعة جامعة حتى كانت واحة الهرير، وحذفت الهربة بحيش معاوية وقيل إنه هم بالقرر وإذا بالمصاحف ترفع على أحزاب من قبل جيش الشام، وإذا بالعترة الكبرى التي لا خطوة بعدها في طريق فلاح من علياً بطر حونه، فإذا بجيشه يوشك أن يقتل فيم بيته مراعا على القتال أو إلقاء السلاح وإن معاوية نفى عنى عن كهاج قوم

لا ينفقون على كفاحه فله منهم سيوف مشرعة لبصرته، شاءوا أو لم يشاءوا ،  
وسيكفونه منوبة الحرب حتى يتفهموا بهمهم على حريه، وهداهات

• • •

ولو كانت امة الطاعة في جيش على، مقصوره على اجتهد القراء والحفاظ،  
وبعزل الغلاة والمتمردين لكان في ذلك وحده ما يكفي لإفساد التدبير  
واضطراب القيادة وتعذر القتال على أصوله إذ لا يستغنى القائد في ميدان  
الحرب، ولا في ميدان السياسة، عن اكتساب والمهارة وتحويين الخطط على حسب  
بطورئ والمسباب فإذا كان في كل عمن من أعماله عرصه لاجتهاد تصعب  
الفتاوى وكان أصحاب الفتاوى يعترفون عشرين راحة في كل حركة من  
حركات الجيش، فليست له خطة تكتم ولا خطة تفض ولا عجيبة بعد ذلك، أن  
يسهرم في ميدان القتال شرميمة يبتلى بها مقاتل بل العجيب أن يتماسك بفترة  
من الرس - وإن قصرت أمام جيش يفوقه في العدد ويرجع في أمره إلى قيادة  
موحده ونية مجتمعة ومشينة مطاعة

ولكن الآفة مع هذا، لم يكن كلها في اجتهد الحفاظ ونعجز الغلاة بل كان  
في الجيش أساس يخون عهده ويشغبون عليه، ويبدو من أعمالهم أنهم مسخرون  
بعده كارهون لانساراه فإن لم يكونوا كذلك، فالأمر الذي لا شك فيه أنهم كانوا  
يعملون - وهم عامدون وغير عامدين - شر ما يعمل الخائن الخبيث لدى يبحرين  
الفرص للعباد والشفاق، وإفشاء الحبل والغدال في أخرج الأوقات

وأدهى من ذلك أنه لم يكن قادرا على رجرهم والتكامل بهم لأن الجيش الذي  
بوحد فيه من يحرم حرب العدو لن بعدم أساس يحرمون حرب النصير المقيم على  
طاهر الطاعة، وليس لك بيعة طاطعة عليه

ومثل من ذلك أبص يعنى عن أمثال كثيرة، وهو مثل لأشعث بن قيس الأكبر  
سادت كسدة وأخلفهم أن ينصر حربا على حرب، بو خصصت نيتة وبرتت شبعه  
من التقلب والعدر بأصحابه .

طمع هذا الرجل إلى الملك بعد موت النبي عليه اسلام، فدعا قومه أن يتوجهه  
وحارب المسلمين مع المرتدين حتى حوصروا في حصنه أماما، ونش من القبة

فاستسلم على أن يصاب دمه ويعية دم عشرة من أخصائه، ثم فتح الحصن وقتل كل من فيه وباح بالعشرة الذين اختارهم إلى أبي بكر رضي الله عنه، فقبل توبته وروحه أخته أم فروة فلم يشب العسة بين علي ومعاوية كان هو من حرب علي يتطلع للفرصة السانحة.

ثم رحف علي رضي الله عنه إلى صفير فكان الأشعث ولد لصفيرين إلى القتار حين سد أهل الشام طريق الماء وجاء علياً يقول «يا أمير المؤمنين أيمعنا القوم الماء وأنت فيما ومعنا سيوفنا» ولى الرحف إليه هو الله لا أرجع أو أموت»

ولكنه عاد إلى المسالمة، بعد أن وضع المصر في ليلة اهرير فخطب في قومه من كعدة قاتلاً

« قد رأيتم يامعشر المسلمين ما قد كان في يومكم هذا العاصي، وما قد فني فيه من العرب هو الله لقد بلغ من السر ما شاء الله أن أبلغ، فما رأيتم مثل هذا ليوم قط، ألا فببلغ الشاهد العائد أن إن توافقنا غد إذن لعيت العرب وضيعت لحرمان. أما والله ما أقول هذه المقالة خوفاً من الحرب، ولكني رح من مسن أخافه على النساء والذراير غدا إذا فني».

ثم ذهب إلى علي رضي الله عنه بعد رفع المصاحف، فقال له «ما أرى الناس إلا قد رحوا وسرهم أن يحيبوا القوم إلى ما دعوههم إليه من حكم اقران فإن شئت أتيت معاوية فسألته ما يريد فمظرت ما يسأل».

ولقي معاوية فسأله «يامعاوية لأي شيء رفعت هذه المصاحف؟»

قال «لنرجع نحن وأنتم إلى أمر الله عز وجل في كتابه تبعثون منكم رجلاً يرصون به وبعث منا رجلاً، ثم تأخذ عليهما أن يعمل لهما في كتاب الله لا معدوا به. ثم تتبع ما اتفقا عليه»

فقال الأشعث، «هذا الحق».

وعاد إلى علي بن أبي طالب بالتحكيم، ويختار له هو وأنصاره رجلاً ينوب عن علي وعلي لا يرصده.

وكن أنصار التحكيم قد تكاثروا و جبرءوا على أمير المؤمنين، فلم يبالوا أن يحبهوه بالقول السيئ مندرين متوعدين.

«بعلی أحب إلى كتاب الله عز وجل ما دعت إليه، وإلا تدفعك برمتك إلى انجوم أو نفع كما فعلنا بن عباس إبه عرض علينا أن يعمل بما في كتاب الله عز وجل فقبلته، والله لتفعلنها أو لتفسدها بك».

وألحوا عليه أن يرد قائده، الأشتر النخعي من ساحة الحرب وإلا اعتزلوه أو قتلوه فقبل التحكيم وهو كاره.

واختار أهل الشام عمرو بن العاص فقال الأشعث: «باب رصت بأبي موسى الأشعري»

فأبى علي «إبه ليس لي بثقة قد هارفتي وخذل الناس علي، ثم هرب مني حتى أمنت به بعد أشهر، ولكن هذا ابن عباس ذوليه ذلك»

قالوا: «لا نريد إلا رجلاً هو منك ومن معاوية سواء ليس إلى واحد منكم بأدنى من الآخر»

قال: «فأبى أحمل الأشتر»

فأبى الأشعث - وهو يفس علي لاشتر مكانه ويلاءه من قبل - «وهل سعر الأرض غير الأشتر» أو فأن وهل نحن إلا في حكم الأشتر»

عطف رأى إصرارهم بقلة أنصاره على ربه بينهم قال: «فقد أبيتم لا أبا موسى»<sup>٩</sup>

عاصراً: «نعم»

فأبى: «فاصنعوا ما بنا لكم»

\* \* \*

فهذا رجل من الرعماء مصاعير في جيش علي، ثم يدع من وسعه شيئاً لتعيب حرب معاوية على حربه، واستكثر عليه أن يكون الحكم الذي يختاره بصيراً له مومناً بحقه وصحة رأيه ولا طائل في البحث عن هذا الخذلان انصريح، أكان هو



أطمع في الملك بعد فشل على أم لبقمة على لأشتر البخعي في مكنته ويلائه  
أم انتواطو بييه وبين معاوية على صنفعة مزجده ومكهاه موعوده هبعا ليه  
الخبثه ظاهرة وإن استترت اعلة، وأب كانت العبه الحفيه فقد صنع الرجل غابة  
ما استطاع لتغليب حرب معاوية وخذلان الحزب ادى هو فيه

فاز على بصف قسمته من لأنصاره، وقسمته من الموارد و لغذرات «لوأحنى  
جبل لتهاقت».

وقال بصف أنصاره «أيها الناس انمتمعة أبدانهم، استنمعة أهواؤهم،  
كلامكم موهي انصم الصلاب، وفتحكم يطمع فتكم الأعداء ما عذب سعة من  
دعائكم، ولا استراح قلب من فاساكم أعاني بأصايل دفاع دي الدين المطوي، أي  
دار بعد داركم تمنعون؟» ومع أي إمام بعدى تعاتلون؟ المعروف والله من  
غررتموه، ومن فاز بكم فقد فاز والله بالسهم الأخيب، ومن رمى بكم فقد رمى  
بأفريق باصل<sup>١</sup> أصبح والله لا أصدق قولكم ولا أطمع في بصركم، ولا أوعد  
العدو بكم، ما بالكُم؟ ما دواؤكم؟ ما طبُّكم؟ القوم رجال أمثالكم، أقولاً بخير  
علم؟ وعقله من غير روح؟، وطمعاً في غير حق؟».

وهي صيحة لا تصف إلا بعض ما بعانيه من حيرة، لا مخرج له منها في  
سياسة أصحابه فإنه لم يفرغ من التحكم ادى أذعن له وهو كاره، حتى فوجئ  
بطاقة أخرى من أنصاره يرمونه بالكفر لأنه قبل ذلك انتحكم، ورعموه قبولاً  
للتحكيم في كلام الله وفي دماء المسلمين وهو عندهم كفر بوح، أولئك هم  
الخوارج الذين حاربوه بالسلاح، وكانوا يحرمون عليه حرب معاوية قبل ذلك<sup>٢</sup>

ثم اجتمع الحكماء بدومة الجندل التي وقع عليها لاخيار لتكون وسط بين  
العراق والشام ولم يكن قرار الحكماء خافياً على من عرفوا أن موسى الأشعري  
وعمر بن العاص فإن أيا موسى لم يكتف قط أن السلاعة في احزاب افريقين  
والقعود عن القتال، فلبس أيسر من إقناعه بخلع جناحيه وخلع معاوية على  
السواء، ثم يرجع الرأي إلى عمرو بن العاص في إقرار هذا الحل أو الاحتيال فيه  
بالحيلة التي ترصيه

(١) الألفاق هو المهم المكسور في موضع الود، والمضلل العاري من البصير.

غير أن الدهاة من العرب، كانوا يتوقعون من عمرو بن العاص أن يحال نفسه حتى يفرغ رسعته قبل أن يحتار لصاحبه أسى أباه عنه

ومن هؤلاء الدهاة المغيرة بن شعبة الذي اعترض الفريقين من مطلع الفتنه إلى يوم التحكيم فلما اجتمع الحكماء علم أنها الجولة الأخيرة في الصراع.. فخرج من عزلته ودب لسطوع الأمور، على سعة الدهاة من أمثاله، إذ يتسعون الريح قبل هبوبها ولا ينفقون أنفسهم بمهبتها قبل أوانها فبقي أبا موسى وعمرو بن العاص، ثم ذهب إلى معاوية وهو مشغول بالبال بطول اجتماع بين الحكيم واضطراب الظنون فيما وراء هذا الإبطاء المريب فقل له وهو يرى اشتعال باله «قد أتيتك بحبر الرحلين..» قال معاوية وما خبرهما؟..

قال المغيرة «بى خلوت بأبى موسى لأبلى ما عنده فقلت ما تقول فيمن عثر عن هذا وحس بى بيه كراهية للمساء» فقال أولئك خيار الناس، خعب ظهورهم من دماء إخوانهم وبطوبهم من أموالهم. فخرجت من عنده وأتيت عمرو بن العاص، فقلت يا أبا عبد الله ما تقول فيمن اعترز هذه الحروب؟ فقال أولئك شرار الناس لم يعرفوا حقاً ولم ينكروا باطلاً..»

ثم عقب المغيرة قائلاً «ما أحسب أبا موسى خالعا صاحبه وحاعلها لرجل لم يشهد وأحسب هواه في عبد الله بن عمر بن الخطاب، وأما عمرو بن العاص فهو صاحبك الذي عرفته، وأحسبه سبطلها لنفسه أو لابنه عبد الله، ولا أراه يظن أنك أحق بهذا الأمر منه..»

وقد أحس المغيرة حزره - نقط الحرف بالحرف - في تقدير سة الرجلين، فإيهما ما اجتمعا هنيهة حتى أقبل أبو موسى على عمرو يقول له «يا عمرو! هل لك فيما فيه صلاح الأمة ورضا الله؟» قال: «وما هو؟»

قال: «بولى عبد الله بن عمر، فإنه لم يدخل في نفسه شيء من هذه الحروب» فراغ عمرو قليلا يحاول أن يلقي في روع صاحبه أنه يريد معاوية، ثم عاد يسأله. فما يمنعك من ابني عبد الله مع فضله وصلاحه وقديم هجرته وصحيته؟»

فأوشك أبو موسى أن يحبيه لولا أنه قال «إن ابنك رجل صديق، ولكنك عمسته في هذه الحروب عمسا»

وتكرر بينهما هذا القول وأشبهه على كل لقاء، وطفقا مبدآن منه وبعيدان إليه بعد كل جدال، حتى وقر في خلد الأسعري أن خضع الرعيمين أمر لا مدح منه ولا اتفاق بينهما على غيره، فتواعدا إلى يوم يعلن فيه هذا القرار

وتقدم أبو موسى فقال بعد تمهيد «أيها الناس، إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة، فلم نر أصلح لأمرها ولا ألم ليشغلها من أمر قد أجمع رأي ورأي عمرو عليه، وهو أن نخلق علياً ومعاوية ونستقبل الأمة بهذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا عليهم، ومنى قد خلعت علياً ومعاوية فاستقبلوا أمركم وولوا، عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً»

ونلاه عمرو فقال بعد تمهيد «إن هذا قال ما سمعتم وخلق صاحبه، وأنا أخلق صاحبه كما جعته، وأثبت صاحبي معاوية، فإنه ولي عتد من عرف رضى الله عنه، والطالب يمدح وأحق الناس بمعامته»

فغضب أبو موسى، وصاح به «مالك لا وفقك الله عدوت ومجرت، إنما مثك مثل الكلب إن تحمل عنه يلهث أو تتركه يلهث»

فابتسم عمرو وهو يقول «بما مثلك كمثّل احمار يحمل اسفارا»

كلب وحمار فيما حكما به على نفسيهما عاضيين وهما يقضيين على العالم بأسره ليرضى بما قصياه

وانتهت أساسة بهذه المهرلة، أو انتهت المهزلة بهذه الأساة

ويان أن اجتماع الحكمين لم يفص إلى اتفاق بين الحكمين بعد اختلاف إبي ماكان عليه

غير أنه استشرى واحتدم بعد قصة الحكمين بما زاد عليه من فتنة الخوارج المنكرين للتحكيم

فقد اجتمعوا وأبرموا فيما بينهم «إن هذين الحكمين قد حكما بغير ما أمر الله، وقد كفر إخواننا حين رصوا بهما، وحكموا الرجال في دينهم ونحن على

السُّحُور من بين أظهرهم، وقد أصبحوا واحداً واحداً على الحق من بين هذا الخلق»

وخرجوا وعلى يأبى قتلهم حتى يئس من توبتهم، ولقيهم بالحيش، فآثر أن يلقاهم مناقشة قبل أن يلقاهم مقاتلة، واقتراح عليهم أن يخرجوا إليه رجلاً منهم يرصونه، يسأله ويحييه ويتوب إن لزمته الحجة ويتوبوا إن لزمتهم. فأخرجوا إليه إمامهم عبد الله بن الكواء

قال على «مالذي بقستم على بعد رضاكم برلايتي وجهادكم معي وصاغتكم لي، فهلا برقتم مني يوم الحمل؟»

قال ابن الكواء: «لم يكن هناك تحكيم»

قال على «يا ابن الكواء ويحك أب أهدى أم رسول الله ﷺ؟»

قال ابن الكواء «بل رسول الله ﷺ».

قال على «فما سمعت قول الله عز وجل ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا أَنبِئْنَا وَبِئَانَاكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ أكان الله يفتنهم هم انكاريون»

قال: «إن ذلك احتجاج عليهم، وأنت شككت في نفسك حين رضيت بالحكمين، بصر أخرى أن تشك فيك»

قال «وإن الله تعالى يقول: ﴿قُلْ قَاتِلُوا بِنَدَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا اتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٩)»

قال ابن الكواء «ذلك أيضاً احتجاج منه عليهم» ثم قال بعد كلام طويل من قبيل كلامه هذا: «ألك صارق في جميع قولك غير أنك كفرت حين حكمت الحكمين»

قال على «ويحك يا ابن الكواء إني إنما حكمت أياً موسى وحكم معاوية عمراً»

قال ابن الكواء: «هيا إن أب موسى كن كافراً»

قال على «متى كفر؟ أحين بعثته أم حين حكم؟»

قال ابن الكواء: «بل حين حكم»

قال علي «أفلا ترى أني بعثته مسلماً فكفر في قرك بعد أن بعثته. أرأيت لو أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً من المسلمين إلى ناس من الكافرين ليدعوهم إلى الله<sup>١</sup> فدعاهم إلى غيره هل كان على رسول الله ﷺ من ذلك شيء؟»

قال «لا».

قال «ويحك فما كان علي أن صل أبو موسى» أفيحار لكم بصلالة أبي موسى أن تضعوا سيوفكم على عزتكم فتعرضوا بها للناس؟»

وعلم الخوارج أن أصحابهم ليس ببدل لعل في مجال نقاش، فكفوه عن الكلام كأنهم أمروا بصدق عي في حجه وقصده، لولا أنهم قوم قهريهم لحاجة العباد كما يقهر أمثالهم من اليهوديين الذي يجدون في المصى مع العباد لده يسمرون بها من الحق والمعرفة. فمردوا على الشقاق، وأصرروا على تكفير علي وأصحابه، وأن يعاملوهم في الحرب والسلام معاملة الكفار

• • •

واستبقى على بعد هذا كله بقية للسلم والمراعاة مرفوع في اسباحة راية ضم إليها ألعى ربح وبادى. «من التجأ إلى هذه الراية فهو آمن»

ثم قال لأصحابه «لا تبدءوهم بالقتال حتى يبدءوكم» فصاح الخوارج صيحتهم «لا حكم إلا لله وإن كره المشركون» وهجموا محمداً رجل واحد. وتلقاهم على وأصحابه لقاء من تغد صبره ووغر صدره فما هي إلا ساعة حتى قتل معظم الخوارج، وبقي منهم نحو أربع مائة أصيبوا بجراح وعجزوا عن القتال، فأمر بهم عي فحملوا إلى عشائرهم لينظروا من فيه رمق فيسركوه بعلاج

• • •

وأراد المسير إلى الشام ليلقى بها جيش معاوية

فتصدى له الأشعث بن قيس مرة أخرى، كما تصدى له في كل فرصة سباحة للخلية، وقال له علي مسمع من أساس «يا أمير المؤمنين بعدت

(١) وقد حدث هنا في عهد النبي عليه السلام إذ أوقف بهاراً الرجال يهودى قوم مسلمة فيقلب هناك جيشاً بديله.

بألبا وكلت سيوفها، وبصلت أسنة رماحها فأرجع بها إلى مقرها ليستعد بأحسن عدتها، ولعن أمير المؤمنين يريد في عدتها عدة من هلك منها، فإنه أوفى لنا على عدونا»

وتسلل الحصد من معسكرهم، ولاد من لاد باللس القريبه منهم ونقر على أن القوم صارقون من يده ولا طعة له عليهم إذا دعاهم بعدها لفعال

أف معاوية فقد علا حصه بين قومه، وأعانه صلاب المصافع عامدين، وأعابه الحوارج غير عامدين، فحاربوا علياً ولم يحاربوه، وطلبوا التوبة من علي ولم يطلبوه منه، واستمر هو في إنقاذ اليعوت والسرانا إلى كل موضع انس منه عرة وض برعمائه موجدة أو سامية فلم تنقص سنفار حتى كانت معه مصر والمدية ومكة، وبقي علي في أرباض الكوفة يائساً مبعولاً عن الناس، يتمنى الموت كما قال في بعض خطبه ويوحس شراً من اقرب المقربين إليه، وستهي بقبول المهالبة بيده وبين معاوية على أن تكون له العراق ولعاقبة الشام، ويكفها السيف عن هذه الأمة، فلا براع ولا قتال..

\* \* \*

وبقيت في كتابة الاقدار مصادفة من هذه المصادفات التي يخيل إليك، وأنت تتعقبها، أنها تجمعت منذ الأبد ليقوء على بفائض الموقف كله، ويظهر خصومه بتوفيقات الموقف كله، فشاءت هذه المصادفة الأخيرة أن يتفق ثلاثة على قتل ثلاثة، فيذهب هو وحده صحبة هذه المكيدة العاجلة، ويفلت رميلاً فيها معاوية وعمر بن العاص

اجتمع عبد الرحمن بن ملجم والبرك بن عبيد الله وعمر بن بكر التميمي، وهم من غلاة الخوارج الموتوريين فتذاكروا ابقلى من هريقهم، وتذاكروا القتنى من امسلمين حمامة وألقوا ورر هذه الدماء كلها على ثلاثة من الكفار أو أئمة الضلالة في رأيهم وهم علي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان، وعمر بن العاص

فقال ابن ملجم: «أنا أكفبكم علي بن أبي طالب»

وقال البرك: «أنا أكفبكم معاوية بن أبي سفيان»

وقال عمرو بن بكر «أنا أكتفكم عمرو بن العاص»

وإن ضيقنا الثأر لحافز أي حافر

وإن تهوس العفيدة لمثير أي مثير

وكان للمتأمرين الثلاثة قسط واف من هدير الحافرين، يعني عن مريد من  
الحريص على القتل والانتقام

ولكن لمصادفة العجوبة هي التي شاءت أن تشدد عريضة بن ملح بن حافر  
ثابت لعله يمسى حين يديه هذان الصفا، وهو حافر من العوام  
الطامع لا يرويه إلا دم ذلك الشهيد الكريم

فإن امرء قد يميم ثأره الحقد وقد يمارى بعنه فيما يعرضه بعقده وبكه  
إذا كان عاشقا مخبولا يستحضره الوعد ممشون مسيط عليه، فهو مأثور مصاحبه في  
يدى غيره، وليس في يديه

• • •

كان بن ملح بن حافر من تيم الرباب، فل أبوها وأخوها وبعض أقربائها  
في معركة الحوارج، وكانت ترصف بالحمال الفائق والشكمة القوة، وشدين  
بمذهب قومها فوق ما في جوارحها من لوعة الحرر على دويها فلما خصبها ابن  
ملح لم ترص به روج إلا أن يشفى بوعتها فل «وما شفيك؟» قالت «ثلاثة  
الاف درهم وعبد وقينة، وقتل على بن أبي طالب»

قال «أما قتل على فلا أراك تكرته لي وأنت تريدني»

قال «بل التمس عريه فإذا أصيبت شفيك نفسك ونفسك وبهأك العيش معي  
وإن قتلت فما عند الله خير من الدنيا وربنتها وريته أهلها»

وحرج الثلاثة مواعدين أي ليلة واحدة، يقتل كل منهم صاحبه في ذلك الموعد  
فلما عمرو بن العاص، فقد اشتكى بصره تلك الليلة فلم يخرج من بيته، وأمر  
خارجة بن حذافه صاحب سرطنه أن يصلي بالباس فصره عمرو بن بكر وهو  
يحسبه عمرا فقتله فقال عمرو أربأني وأراء الله خارجة، وأمر بعنه

وما معاوية فصرية ليرك بن عبد الله وقد خرج العداة للصلاة فومعت  
بصرية على البيت وعيل إن الطعنه مسمومه لا تشعبها إلا الكي بالدار أو شرب  
سمع النسر فخرج معاوية من النار ورصى انقطاع النسر وهو يقول «ي يرد  
وعبد الله ما تقر به عيني وأمر بالرجس فقتل لحبه»

وأما علي فصرية بن منجم في جبينه بسيف مسموم وهو خارج للصلاة  
فمات بعد أيام وهو يحذر أولياء دمه من امته ويقول لهم «يا بني عبد المطلب  
لا ألقى بكم نحو صون دماء المسلمين يقولون قتل أمير المؤمنين قتل أمير  
المؤمنين ألا لا يقتلن أحد إلا قتلى»

«نظر باحسن إن أنا مت من صريته هذه فاصرية ضربة بصرية ولا تمثل  
بالرحل فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول ياكم وبمثلة ولو أنها بالكل العقور»

• • •

وهذه خاتمة الفاحشة ينظر في كل فرض من فرضها فلا تخلبها من  
المصادفة السيئة التي لا تلقى تبعثها على أحد بعينه

فمهم نقل القائلون إن علياً إنما أصيب لأنه كان لا يتقي أحداً ولا يحرص إلى  
المسجد بحرس فالواقع أن المصادفة انسنة قديمة هناك تفرق في عشرات الخط  
بمنه وبين رميلية الدين سفا معه إني مكيدة واحدة فخرجاً منها يحصين غير  
حظه فإن ابن العاص لم ينج من القتل لأنه خرج إلى المسجد محروساً ولكنه نج  
لأنه لزم بيعة في تلك الليلة ومات صاحب شرطته الذي خرج في مكانه ولم ينج  
معاوية لأنه خرج محروساً ولكنه نجا لأنه أصيب وكانت أصابه غير قاتلة

فهى المصادفة السيئة مهما تلتبس بها على من غل التاريخ، نرجع بنا في  
آخر الأمر إلى على المصادفات التي لا تقبل التعديل

وشىء آخر تصوره لنا هذه الخاتمة الفاحشة كما تصوره لنا البعثة كلها من  
قبل ابتدائها إلى ما بعد انتهائها

وبذلك هو المسيح الإنساني البص الذي يخلل حياة على في لحمتها وسداها  
وهي تفصيل أجزائها وجملة محوالاتها فما من حادثة من حوادث هذه الحياة

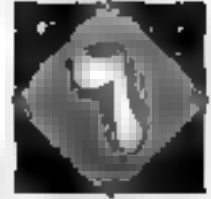


البييلة إلا وهي معرض حافل لمعاطف الإنسانية مرعتها، تلتقي فيه عوامل النخوة واشجاعه والوفاء والإيمان والسماحة، وشئتكم فيه مطامع البس وأشواقهم وظواهرهم وخباياهم وذلك الاشتباك الذي يخلق الشعراء خلقاً في القصص والملاحم، فلا يحكمونه بعصر، إحكام الواقع المموسى في سيره الإمام وقد أسلفنا في صسر هذا لكتاب أنها سيرة تلامس النفس الإنسانية في شتى نواحيها تلامسها من ناحية العقيدة كما تلامسها من ناحية العاطفة، ومن ناحية الفكر كمناسبة الخيال، ومن ناحية التمرد كمناسبة الولاء فإذا اتبعت السيرة بالخائمه، فأى خيط من خطوط تلك الشبكة الإنسانية تتى تسحبها اقتران لاقتباس اشعور وتقريب الخيال تفقده في هذه الخائمة الفاحشة أى بدع من يواعث القصص الداعية بأحاسيسها ولواعظها لا يربعد هب ارتعاده في كل فصل من فصولها ومشهد من مشاهداتها بأس الكريم المعبود وجرة المحفل لغالب وعرام المتهموس المجنور وأريحية القتل الموصى بن اعتدى عليه، وحقد المرأة وخداع الجمال، وريغ لعقيدة، واسدواء الإيمان، وهيون لا تحصي تحتتمع من الشعور الموار واللهفة ابدائمة في خاتمة حياة بسع الف حياة

\* \* \*

وهذه مزية على بين خلفاء الإسلام قطيه يعرف بها لأنه انفراد بمثل من النفوس ومثان من العوارض الفردية والاحتتماعية تربغه المصادفات في الأجيال الطوال، ولا تحسن أن تولفه بعشيقته في كل جيل، تلك حياته حتى . وذلك مصرع شهيد.





## سياسته

تسرى في صفحات ساربع أحكام مرتحلة يتلفها هم من هم، ويتورثها جيل عن جيل، ويحدثها السامعون قصبة مسئمة، مفروعا من بحثها والاستدلال عليها، وهي في الواقع لم تعرض قط على البحث والاستدلال، ولم تحاور أن تكون شبهة وافقت ظواهر الأحوال، ثم صقلها الألسنة فعز عليه بعد صقلها أن تردده إلى الهجر والإهمال

كل أولئك من لعو الشعوب ولشعوب بداهة تقصر دونها بداهة انعواصين من الأفراد، ولكنها إذا نغت فشوطها في اللغو أوسع من شوط الفرد يأمد بعيد من تلك الأحكام المرحلة قولهم إن علي بن أبي طالب ربح شجاع، ولكن لا علم له بخدع الحرب والسياسة

وقد شاع هذا الرأي في عصر علي بين أصحابه، كك شاع بين أعدائه، وعمر لقول به أنه خالف الدهاة من العرب فيما أشاروا به عليه، وأنه لم يبح بعد هذه المخالفة في معظم مساعيه، فكان من الطبيعي أن يقال إنه منى بالفشل لأنه عمل بغير ما أشار به أصحابه الدهاة، وأنه هو لم يكن من أصحاب الخدع الساحقة في الحرب أو السياسة.

وقد يكون كذلك أو لا يكون فسرى بعد البحث في آرائه وآراء المشيرين عليه أي هدين القولين أدنى إلى الصواب.

ويكن هل خطر لأحد من ناقديه، في عصره أو بعد عصره، أن يسأل نفسه أكان في وسع علي أن يصنع غير ما صنع؟

وهل خطر لأحد منهم أن يسأل بعد ذلك: هه استطاع أن يصنع غير ما صنع فما هي العاقبة؟ وهل من المحقق أنه كان يعصى بصيغه إلى عاقبة أسلم من العاقبة التي صار إليها؟

ثم نعرف أحدا من شافديه، خطر له أن يسأل عن هذا أو ذاك مع أن السؤال عن هذا وذاك هو السبيل الوحيد إلى تحقيق الصواب والخطأ على رأيه ورأى مخالفه سواء كانوا من الدهاة أو غير الدهاة.

والذي يبدو لما نحس من تقدير العواقب على وجوهها المختلفة أن العمل بغير الرأي اندى سبق إليه لم يكن مصمون النجاح ولا كان مأمورين الخطر، بل ربما كان الأمر في نجاحه أضعف والخطر من اتباعه أعظم، لو أنه وضع في موضع العمل والإيجار وخرج من حيز التصحيح والمشورة

وهو هي المسائل التي خاضه فيها أسامة، أو خالفه فيها بقدة التاريخ الذين نظروا إليها من الشاطئ، ولم يبطروا إليها نظرة الزمان في غمره العواصف والأمواج فالماخذ التي من هذا القبيل، يمكن أن تنحصر في المسائل التالية، وهي

- ١ - عزل معاوية
- ٢ - معاملة طلحة والزبير
- ٣ - عزل قيس بن سعد من ولاية مصر
- ٤ - تسليم قتلة عثمان
- ٥ - قبول لتحكم
- ٦ - قبول لخلافة

وهي كلها على الأقل مائلة للحلاف والاحتجاج من كلا الطرفين فإن لم يكن خلاف وكان جرم قطع، فهو على ما يعتد أقرب إلى رأى على وأبعد من آراء مخالفيه وشافديه.

• • •

قبل في مسألة معاوية بن علياً رضى الله عنه خالف فيها رأى المغيرة وابن عباس وزيد بن حنظلة التميمي، وهم جميعاً من المشهورين بالحكمة وحسن التدبير.

جاءه المغيرة بن شعبة بعد مبايعته فقال له «إن بك حق لصاعة وإنصبحة، وإن الرأي اليوم تحرر به ما في غد، وإن الصبغ اليوم تصبغ به ما في غد» أقبر

معاوية على عمله وأقرر العمال على أعمالهم حتى إذا أتتك طاعتهم وبيعته  
الخنود استبدت أو تركت»

فأبى وقال «لا أداهن في ديني، ولا أعطي النية في أمري»

قال المغيرة «فإن كتب أبيك على فترع من شئت واترك معاوية فإن في  
معاوية حراً، وهو في أهل الشام يستمع له ولك حجة في ثيابه. إذ كان عمر قد  
ولاه الشام».

فقال علي «لا والله.. لا أستعمل معاوية يومين»

• • •

ثم خرج المغيرة ودخل عليه ابن عباس فقال له، لم علم يرأى المغيرة «إنه يصحك»

قال علي «ولم نصحتي؟»

قل «لأنك تعلم أن معاوية وأصحابه أهل دين عصى تثبتهم لا يبدلوا بمن  
ولي هذا الأمر ومتى تعزلهم يقرلوا أخذ هذا الأمر بغير شوري، وهو قتل صاحبها،  
ويؤجلون عليك فينقص عليك أهل الشام وأهل العراق

ثم مضت الأيام، وشاع بين أهل المدينة أن معاوية منتقص على الإمام  
فبعثوا يرياد بن حصبة التميمي يعلم ما عنده من أمر هذا الانتفاص وكان رباب  
من جلسائه

فقال له الإمام: «تسبون»

قال رباب «لأبي شيء»

فقال «تعزو الشام»

فقال رباب «الاباة والرفق أمثل، واستشهد بقول الشاعر

ومن لم يصابع في أمور كثيرة      مصوس بأنياب ويوطأ بمحسم

فتمش على

حتى تجمع القلب السكي وحسرم      وأما حميد تحسبك المضام

فخرج ريثا داني الناس وهم يسألونه «ما وراءك» فأجابهم «هو السيف يقوم»

• • •

تلك اراء المشيرين من ذوي الحكمة، وذلك ما عمل به الإمام وارتصده فأيهما  
على خطأ وأيهما على صواب؟

سبيل العلم بذلك أن تعلم أولا هل كان الإمام مستطيعا أن يفر معاوية في  
عمله بالامام؟

وأن تعلم بعد هذا هل كان إقراره أدنى إلى السلامة والوفاق لو أنه «استطاع»  
وعندما أن الإمام لم يكن مستطيعا أن يفر معاوية في عمله لسببين أولهما أنه  
أشار على عثمان بعزله أكثر من مرة وكان إقراره وإقرار أمثاله من الولاة  
المستعجلين أهم العاخذ على حكومة عثمان في رأي على ودوي الصلاح  
والاستقامة بين الصحابة وكثيرا ما اعتذر عثمان من إقرار معاوية بأية من ولاة  
عمر بن الخطاب مكان علي لا يقبل هذا العذر ولا يرال يقول له «إنه كان أخوف  
بعمر بن الخطاب من علامه «يرقأ» ولكنه بعد موت عمر لا يحاف»

فيما أقره وإلى الخلافة، فكيف يقع هذا الإقرار عند أشياخه؟ ألا يقولون إنه  
طالب حكم لا يعديه إذا وصل إلى بغيته ما كان يقول وما سيقوله الناس؟

وقد هو أعرض عن رأيه الأول، فهل في رسعه أن يعرض عن اراء لثانين  
الذين يدعونه بالخلافة لتغيير الحال والخروج من حكم عثمان إلى حكم حديد؟

إن هؤلاء الثانين شفقوا من بية الصلح مع طلحة والزبير في وقعه الحمل،  
فبدعوا بالهجوم قبل أن يؤمروا به بل مجسوا على أهل النصرة وهم مأمورون  
بالهدنة والآفة فكيف تراهم يهدعون ويصيغون إذا علموا أن الولايات باقية على  
حالها، وأن الاستعلال الذي شكوا منه وسخطوا عليه لا تبديل فيه؟

وبدع هذا وترغم أن إقرار معاوية بحية من الحيل مستطاع فهو هو على هذا  
لزعم أسلم وأدنى إلى الوفاق؟

كلا على الأرجح، ين علي الرجحان، أدنى هو في حكم التحقيق لأن معاوية لم  
يعمل في الشام عمل وال يظل والي طول حياته، ويقع بهذا النصيب ثم لا يتناول

إلى ما وراءه، ولكنه عرس فيها عرس صاحب الدوية النى يؤسسها ويدعمها له ولأبنائه من بعده. فجمع لأفصاب من حوله، واشترى الانصار بكل ثمن فى يديه، واحاط نفسه بالقوة والثروة، واستعد للنفذ الطويل، واعتصم لفرصة فى حننها هأتى فرصة هو واحدها خير من مقتل عثمان وامصالية بثأره؟

وانما كان مقتل عثمان مرصه لا يصيغها، وإلا ضاع منه الملك وتعرض يوما من الأيام بصياح الولاية وما كان مثل معاوية بالذى يهوته الخطر من عربه بعد اسفرار الأمور، ولو على احتمال بعيد فمذا تراه صامعا إذا هو عزل بعد عام من مبايعته لعلى وتبرئته إياه من دم عثمان؟

إنما كان مقتل عثمان فرصة لغرض لا يقبل إلا رجاء

وإن كان هذا موقف على ومعاوية عند مقتل عثمان، فعادا كان على مستعدا من إقراره فى عمله وبغريض نفسه لغضب أنصاره

لقد كان معاوية أحرى أن يستفيد بهذا من على، لأنه كان يغتم به حسن الشهادة به وبزكية عمله فى الولاية، وكان يغتم به أن يفسد الأمر على على بين أنصاره. فتعلو حخته من حدث تسقط حجة الإمام

وأصدق ما يقال بعد عرض الموقف على هذ الوجه من ناحيته أن صواب الإمام فى مسألة معاوية كان أرجح من صواب مخالفيه. فإن لم تؤمن بهذا على تقدير والترحيح فأقر ما يقال إن الصواب عنده وعندهم سواء.

• • •

والتقدير فى مسألة طلحة والزبير أيسر من التقدير فى مسألة معاوية وولاه عثمان على الأنصار

لأن الرأى الذى عرس به الإمام معروف، والآراء التى تحالفه لا تعدر واحدا من ثلاثة كلها أعمص عاقبة، وأقر سلامة وأضعف صمما من رأيه اذى ترتصده

فالرأى الأول أن يولاهم العراق واسيم أو البصرة والكوفة، وكان عبد الله بن عباس عسى هذا الرأى بأنكره الإمام لأن «العراقيين يهما الرجال والأموال، ومنى تملكك رهب الناس يستميلان النسخة بالطمع ويصريان اصعبف بليلاء، ويعوين

على القوى بالسلطان « ثم تنقضان عليه أقوى مما كانا بغير ولاية، وقد استفد من إقامة الإسم لهما في الولاية مركبه يلزمه بها الحجة، وينيران بها أصاره عليه والرأى الناسى أن موقع بينهما ليفترقا ولا يتفعا على عمل وهو لا ينجح فى اوقيعه بينهما إلا بإعطاء أحدهما وحرمان الآخر. فمن أعطاه لا يضمن انقلابه مع العره اسابحة، ومن حرمه لا يأمن أن يهرب إلى الأثرة كما هرب غيره. فيذهب إلى اشام ليساوم معاوية، أو يبقى فى المدينة على صعيبة مستورة

على أنهما لم يكونا قط متفعبين حتى فى مسيرهما من مكة إلى البصرة. فوقع خلاف فى عسكرهما على من يصلى بالناس، وبولا سعى السيدة عائشة بالتوفيق بين المختلفين لافتراقا من الطريق خصمين متبغضين

ولم نطل الحصة بهما متفعبين أو مختلفين، فابهرما بعد أيام قليلة وخرج الإمام من حربهما أقوى وأمتع مما كان قبل هذه الفتنة، ولو بهما على السلم المدخور لما انتفع بهما بعض انتفاعه بهذه الهزيمة العاحلة

وإن رأى الثالث أن يعقلهم أسيرين ولا يبيع لهما الخروج من المدينة إلى مكة حين سألاه الإذن بالمسير إليها، ثم حرجا منها إلى البصرة ليشأ الغارة عليه والواقع أن الإمام قد استراب بما نواه حين سألاه الإذن بالسفر إلى مكة فقال لهما «ما العمرة تريدان، وإنما تريدان الغدرة»

ولكنه لم يحبسهما لأن حسبهما أن يغيبه عن حبس غيرهما من المشكوك فدهم رقد تركه عبد الله بن عمر ولم يسأديه فى السفر وتسلل إلى الشام أناس من مكة ومن المدينة ولا عائق لهم أن يتسللوا حيث شاءوا، ولو أنه حبسهم جميعا لما تسنى به ذلك بغير سلطان قاهر، وهو فى ابتداء حكمه بما يظفر بشيء من ذلك السلطان وأعيب الص أن سواد الناس كانوا يعطفون عليهم ويقمون حبسهم فمن أن نشئت له البينة بوررهم. وما أكثر المتحرجين فى عسكر الإمام من حبس الأبرياء بغير برهان. لقد كان هؤلاء خلفاء أن يصبروهم عليه وقد كانوا يصبرونه عليهم، وخير له مع طلحة والزبير وأمثالهما أن يعلنوا عصيانهم فيحبسهم من أن يكتموه فيعلبوه ويشككوا بنصاره فى عدله وحسن مجاملته لهم



وعلى هذا كله، حاسنوه ولم يصارحوه بعدء لم يكر الخنص الذي خرج من  
مكة إلى البصرة يئاس من الخروج إليها إذا لم يصحبه طلحة والزبير، فقد كانت  
«العتمانية» في مكة حرياً موقور العدد والمال. فهي مسألة تلتبس فيها الطرائق،  
ولا يسعنا أن نحزم بطريقة منها أسلم ولا أصغر عاقبة من الطريقة التي سلكها  
الإمام وخرج منها غابا على الحذر والعراق، وما كان وشيكاً أن يغلب عليهما  
لو بقي معه طلحة والزبير على حرص من جميع الفرص التي قدمهاها

\* \* \*

أما عزل قيس بن سعد من ولاية مصر، فهي عضة من غلطات الإمام يقل  
الحلاف فيها

لأن قيس بن سعد كان أقدر أصحابه على ولاية مصر وحببته، وكان كفواً  
لمعاوية وعمرو بن العاص في الدهاء والعداورة، فعزبه الإمام لأنه شك فيه وشك  
فيه لأن معاوية اشاع مدحه بين أهل الشام، ورغم أنه من حريه والمؤتمرين في  
السر بأمره.

وكان أصحاب عليّ يحرصونه على عزه، وهو يستمهلهم ويراجع رأيه فيه  
حتى تحتمعت الشبهات لديه فعزله وهو غير واثق من التهمة ولكنه كذلك عمر  
واثق من البراءة

وشبهاته مع ذلك لم تكن بالقليلة ولا بالصعيفة فإن قيس بن سعد لم يدخل  
مصر إلا بعد أن حر بحمائه من حرب معاوية فأجاروه ولم يحاربوه وهو في  
سبعة نفر لا حمومه من بطشهم، فحسبوه حين أجاروه من العنصرية البهاريين إلى  
حصن من دولة عي في الحجاز

وبما باع المصريون علياً على يديه، بقي العثمانيون لا يبايعون ولا يثورون،  
وقالوا له «أمهلنا حتى يتبين لنا الأمر» فأمهلهم وتركهم وادعين حيث طاب لهم  
المقام بجوار الإسكندرية

ثم أعزاد معاوية بمناصرتة وأخرج على الإمام، فكتب إليه كلاماً لا إلى  
الرفض ولا إلى العيون، ويصح لمن سمع بهذا الكلام أن يحسبه مراعاة لمعاوية أو  
يحسبه مترقباً لساعة الفصل بين الخصمين، إذ كان ختام كتابه إليه « أما

مصابعتك بأظفر هبها، وليس هذا مما يسرع إليه وأن كف فلا بأسك شيء من  
تجلى تكرهه، «حتى ترى وتري»

ثم اشتد في وعيده حين أنذره معاوية فقال «أما قولك إنني مالي عليك مصر  
خيلا ورحلا، فوالله إن لم أشعلك بنفسي حتى تكون نفسك أهم إليك إيك لدو حد  
والسلام.»

واراد الإحاط أن يستيقن من الخصومة بين قيس ومعاوية فامر قيسا أن  
يحارب المتخلفين عن البيعة فلم يفعل وكتب إليه « متى قاتلتنا ساعدوا عليك  
عدوك، وهم الآن معتزلون والرأي شرهم»

فنعاطم شك الإمام وأصحابه، وكثر المشيرون عليه بعزل قيس واستقدامه إلى  
لنديه فعزله واستقدمه، وبين بعد ذلك أنه أشار بالرأي الصواب، وأن يرك  
لمتخلفين عن البيعة في عزلتهم خير من التبعين بحربهم، لأنهم هزموا محمدا بن  
أبي بكر وإلى مصر الجديد، وحرروا عليه من كان يصاحبه ويواليه عنطة لا ريب  
فيها

وبن كن جائزا مع هذا ألا يهرموا عيسا، لو كان حاربهم، كما هزموا خلفه الذي  
لا يعمله في الحزم والخبرة

وبكنا نبالغ على كل حال بد علقنا بها الجوائز التي أصابت الإمام من  
بعدها، ورجعنا أنه تفاعد عن إصلاحها في حينها، كما تصلح العطلات في  
يساق إليها الساسة فإنما هي غلطة من تلكم الغلطات التي تصير والحوادث  
مولية. ولما نصير أو تعر على لإصلاح واحداث مؤانية وقد عرف الإمام  
خطأه فقام بصحبه «ن مصر لا يصلح لها إلا أحد رجلين هذا الذي عرياه  
والأشتر» وأبعد الأشتر إلى مصر ليعيدها إلى طاعته فمات في الطريق

• • •

والأقوال في موت الأشتر هذه المينة الباغنة كثيرة، منها أنه مات غيلة وأن  
معاوية أعزى به من دس له السم في غسل، سريه وهو على حدود مصر فقصى  
نحبه، وروى أن معاوية من حين بعه موته «ن لله جيويا من الغسل»

عإن صحب الروايه، واعتقد من اعتقد أنها من دلائل السياسة انقوية عند معاوية فمما لاشك فيه أن موت الأشتر، لم يكن من دلائل السياسة الضعيفة عند الإمام، وأنه لا لوم على سياسه في اعياله، إن كان فيه سبب ثناء على سياسة الغيلة عند من يحميوتها.

ومن عجائب هذه القصة أن معاوية بدم على تقريظ قيس من جوار علي، وقار: «لو أمددته بمائة ألف بكاءوا أهول على من قيس» لأنه قد ينفعه وهو قريب منه بالمشورة عليه في عامة أمور، ولا يبحصر نفعه له في سياسة مصر وحدها.

ولكن الذي حذر معاوية لم يكن، والذي حذر علي كان

وإذا ولت الحوادث فقد ينفج الخطأ وقد نصير الصواب

\* \* \*

ثم تأتي مسألة القصاص من قتلة عثمان التي كانت أطول المسائل جدلاً بين الإمام وخصومه، فإذا هي أهمها جدلاً من يراءة المقصد من الهوى وخلص الرعية في الحيفة

فقد طالبوه بالعود ولم يبايعوه، مع أن القود لا يكون إلا من ولي الأمر المعترف له بإقامة الحدود

وطالبوه به ولم يعرفوا من القتل، ومن هو الذي يؤخذ بدم عثمان من القبائل أو الأعراف.

وأعتوه بهذا الطلب لأنهم علموا أنه لا يستطيع قبل أن تثوب السكينة إلى عاصمة الدولة، وأعقوا أنفسهم منه - وهم ولاه الدم كما يقولون - يوم قنصوا على عذر الحكم وثاب السكينة إلى جميع الأمصار

وهو تحدث الإمام مرة في أمر انقود من قتلة عثمان فإذا بحيش يبلغ عشرة آلاف بشرعون الرماح ويجهرون بأسمهم «كلهم فتنة عثمان» فمن شاء لعود فليأخذ منهم أجمعين

وكان الإمام يقول لمن طلبوا منه إقامة الحد رد: «إني لست أحسن ما تعلمون، ولكن كيف أصبح بقوم يملكون ولا يملكون، هاهم هؤلاء قد ثرت معهم عيادكم

وثابت إليهم أعرابكم، وهم بينكم يسومونكم ما شاءوا، فهل ترون موضعاً لقدرة على شيء مما تريدون؟»

ومن قوله لهم : إن هذا لأمر جاهلية وإن هؤلاء القوم صادة، وإن الناس من هذا الأمر الذي تطلبون على أمور فرقة ترى ما ترون وفرقة ترى ما لا ترون، وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى تهدأ احساس وتنقع القلوب مواقفها، وتوخذ الحزم هاهنا وعسى، وانظروا ماذا يأتاكم ثم غووا»

ولو أن المطالبين بدم عثمان التمسوا أقرب الطرق إلى الثأر له وانفصص من العاديين عليه، لقد كان هذا أقرب الطرق إلى ما أرادوا. يؤيدون ولي الأمر حتى يقوى على إقامة الحدود ثم محاسبونه بحكم الشريعة حساب إنصاف

غير أنهم ظلموا ما لا حساب. وما لم يكن من حفيهم أن يطلبوه، وليس بينهم أعف ولا أتقى من السيدة عائشة رضي الله عنها وقد روى عنها أنها قالت لما أخبرت ببيعة علي وهي خارجة من مكة «بيت هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لعلي» تشير إلى السماء والأرض ثم عادت إلى مكة وهي تقول «عنل والله عثمان مظلوماء والله لأطلبن بدمه»

ففيها لها «ولم» والله إن أول من أثار الدس عليه لأنت وقد كنت تقولين اقتلوا «بعلاً» ففهم كفر»

فقالت: «بهم استنابوه ثم قتلوه، وقد قلب وعالوا، وقولي اليوم خير من قولي الأول»

وناهيك بالسيدة عائشة في مصنها ومكانتها وتقواها، فقل ما شئت من العطالين غيرها بهذا المطلب الذي لا يجب

والرص، أو الإرصاء مستحيل حين يكون الطلب من هذا القبيل

• • •

أما الذين لا موه لقبوله التحكيم، فيحيل اليها من عجلتهم إلى اللوم أنهم كساه أول من يلومه ويعرط في لومه بوا أنه رفض التحكيم وأصر على رفضه، لأنه لم يقبل التحكيم وله مبدوحة عنه»

ولكنه قبله بعد إحكام جنوده عن الحرب، ووشك انفعال في عسكرهم خلافا  
دين من يقبلونه ويرتصونه

وقبله بعد أن حذر الحماط والقراء سيف وثمسين فرعة للقتال لشكهم في  
وجوبه ونهات بعضهم إلى تحريمه

وبعد أن توعدوه بقتله كقتلة عثمان، وأحاطوا به بلحون عليه في استدعاء  
الاستراسخى الذي كان يلاحق أعداءه مستحصداً في ساحة الحرب على أمل في  
العصر القريب.

والمؤرخون الذين صوبوا رأيهم في التحكيم وخصّوه في عبود أبي موسى  
الأشعري، على علمه بصعفه وتردده، ينسون أن أبا موسى كان مقروصاً عليه،  
كما عرص عليه التحكيم في لحظة واحدة. وينسون ما هو أهم من ذلك، وهو أن  
العاقبة متشابهة سواء باب عنه يوم موسى الأشعري أو باب عنه الأشر أو عبد الله  
بن عباس. فإن عمرو بن العاص لم يكن ليطلع معاوية ويقرّ عيّاً في الخلافة،  
وقصارى ما هنالك أن الحكمين سيفرقن على تأييد كل منهما لصاحبه ورجعة  
الأمر إلى مثل ما رجعت إليه وإن توهم بعضهم أن الأشر أو ابن عباس كان  
قدبر على تحويل ابن العاص عن رأسه والحيوح به إلى حزب الإمام، بعد  
مسامحته التي ساومها في حرب معاوية. فليس ذلك على التحقيق بمقنع معاوية  
أن يستكين ويستسلم، وحبوه المؤيدون والمترقبون للمطامع والنباتات يعزّ عليهم  
بخلافهم كما يعزّ عليه إخفاقه

وما أسهل المخرج الشرعي الذي يسود به معاوية فيقبله منه أصحابه  
ويتابعونه على نقص حكم الحكمين العتقيين؟ لقد كان النبي عليه السلام يقول  
عن عمار بن ياسر إنه «تعتله الفئة الباغية»، فلما قتله جند معاوية، وخيفت الفئة  
بيدهم أن تترهم سية اليعي يشهاده الحديث الشريف فإن قاتل منهم إماماً قتله  
من جاء به إلى الحرب، فشاع بينهم هذا التفسير العجيب وقبلوه جمعا غير  
مستثنى منهم واحد أقل بقبول تفسيره مثله إذا تحول ابن العاص، وأفسى  
الحكماء بخلق معاوية ومبايعة الإمام؟

فيس في أيدي المؤرخين الناقدين إس حن أصوب من الحل الذي أدعى به الإمام على كره منه، سواء ادعى به وهو عام بحضنه أو ادعى به وهو يسوى بينه وبين غيره في عقبه

• • •

ويبقى اعتزال الخلافة من لبدائية، وهو حطة ترد على الخاطر جبال هذه المعصلات التي وجهها الإمام ولم يكن عسيرا عليه أن يترفعها بعد مقتل عثمان وشيوع العمة والشقاق بين الأمصار كلها وشيوعهما قبل ذلك بين حنده الذي يعون عليه.

وبكها خطه سلبه لا يمتحن بها رأى ولا عمل، ولا تربط بها بحرية ولا مثل وكل ما هنالك من أسباب ترحيحها أنها أسلم للإمام وأمر لسريه وأهدأ لباله، وهو أمر مشكوك فيه على ما في طلب السلامة بين هذه الرعارع من أقرة، قلما يرتضيها الشجاع الباسل أو الحكيم العاقل

فمن السحف أن يخطر على البال أن رجلا كعفي بن أبي طالب، يترك وادعا في سريه بين هذه الرعارع التي تحيط بالدولة الإسلامية في عصره

إن تركه الثوار وأعفوه من الحكم، ثم يتركه أصحاب السلطان ولم يعفوه من الدسيسة والإيذاء، لا اعتقادهم أنه باب من أبواب لخطر الدسم وأنه ما عايش فهو علم منصوب يعى إليه كل ساخط وكل مصلح وكل محائف على الدين أو على الدنيا وقد قيل إن ابنه الحسن مات مسموما في عهد معدوية خوفا من لباد الناس به ورجعتهم إليه وقيل مثل ذلك عن عبد الله بن خالد بن الوليد وما أعظم اسور في المكاة والحساب بينهما وبين الإمام عبد أصحاب المخاوف وأصحاب الامان

ولعلنا نقارب هذه الجبهة من ناحية أخرى، إذا رجعا إلى أنوار أبطال المبدان نفسه في علل اسصر والهزيمة، وهما يقال عن مرية كل منهم على خصمه ومريه خصمه عليه

فعنى يسمع ما يقار عن شجاعته ورجحان معاوية عليه في الدهاء، فيقول «والله ما معاوية بأدهى منى، ولكنه يعصر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس..»

أو يقول: «ولكنه لا رأى بمن لا يصاح»

ويعبر ما أصابه في بيعته بما أحمله لأتباعه حين قال لهم: «لم تكن بيعتكم بي هبة، وليس أمري وأمركم واحداً، إني أريدكم له وأنتم تريدونى لأنفسكم» ومعاقبة يذكر الخصال انى أعين بها على على فيقول: «إنه كان رجلاً لا يكتف سرّاً وكتب كقوماً لصرى»، كان يسعى حتى يفاحنه الأمر مفاجأة وكتب أبادى إلى ذلك، وكان فى أختب حد وأشدهم خلافاً وكتب أحب إلى قريش منه، فقلت ما شئت»

وعمر بن العاص يقول عن عدة انبجاح فى طلب الخلافة: «إنه لا يصح بهذا الأمر إلا رجل فيه حرسان، يأكل بأحدهما ويطعم بالآخر»

وهذه هى أسباب النصر والهزيمة على حقيقتها إلا أنها مظل مافضة مالم نقرنها بحقيقة أخرى وهى أن هزيمة معاوية كتب مرجحة بن مؤكدة لو أنه وضع فى موضع عنى، وابتلى بالأسباب لى ابنى بها

فالبلاء كله بما كان فى حيث الاحداد وشدة خلافهم ولهذا كان سر على يعرف وسر معاوية يكتف لأن معاوية بطاع ونبته فى صدره وعيناً لا يطاع لا إذا سر عن نبته وما يخل منها أو بحرم هو رأى أتباعه، وكذلك كانت تداحه الجوانب لأنه كان يروى فيها ما يروى، ولا بعد من رويته إلا الذى يساق إليه هو وأتباعه آخر لمطاف بحكم لضرورة الحربية، وقد بطل الحدل وبطر من قبله بتدبير

• • •

ولو أن معاوية كتب عليه أن يجارب حيدا مطيعا بجبت عصده بما صنع فى حظ أو حق من حظ على فى ذلك الصرع المتفاوت بين الخصمين ولو سجعان بكل ما أعير به من رشوه الأنصار وكيد لخصوم بن لعله كان يحقق حيث افلح قربه عنى قدر ما يبدهما من ناري فى اشجاعة والسابقة انديسية، وكذلك قال لأمام «ان لىبى نية مزود يسرون عيه ونى ما اختلقو فيما بينهم ثم كدهم الضمير لغلبتهم»

على أنها نود أن نفع عند احد الأمور من تعليل النصر والهزيمة ولا محدود إلى ما وراءه هليس من قصدا أن نصف عينا بقوة انهاء وسخه الحيلة ولكن

قصدنا أن نبينه من عجز الرى وصعف التدبير لأن أسباب نهزيمة موفورة بغير هذا السبب الذى لا دليل عليه.

فقوام القصر بين الطرفين، أنه لا دليل يدين من الحوادث على عجز رى ولا قوة دهاء ولو كانت قوة الدهاء صفة غاية فيه لصهرت على صورة من الصور، ومن قامت الحوادث عائقا بينها وبين النجاح فإن الدهاء لا يخفيه أن تكون المعضلة التى يعالجها محتومة بفشل مقروبه بالحدلان

ومما لا شك فيه، أن على أنشار بالرئى فى مواقف كثيرة قصاص المشورة، وأنه وصف أناسا قدس على خبرة بالرجال وما يخلب عليهم من الصياح والخصال، وأنه أخذ بالحزم فى موقع الحوادث واستطلاع الأمور وبكنه لرم الكفية فى ذلك ولم يتجاوزها إلى لأمد الذى يسلكه بين الدهاة الموسومين بعوط الدهاء

ومن مشوراته الصائبة، به بهى عمر رضى الله عنه أن يخرج لحرب الروم والفرس بنفسه فقال له «إليك متى سر إلى هذا العدو بنفسك فتتعهم فتتك، لا تكن للمسلمين كائنة دون أقصى بلادهم ليس بعدك مرجع يرجعون إليه، فابعت إنيهم رجلا محريا فإن أظهره الله فذاك ما تحب، وإن تكن الأخرى كنت رجلا لناس ومثابة للمسلمين»

ومن وصفه للرجال وأساليب تناولهم، قوله لابن عباس وقد أرسله إلى طلحة وأبي بكر «لا تلعين طلحة فإنك من تلقه تلقه كالنور عاقص - أى لاوى - قوته يركب الصعب ويقوى هو الذبول، ولكن الق الربير فإنه ألين عريكة فقر به «يعول لك ابن خالك عرفتى بالحجار وأكرتني بالعراق فما عدا مما بدا»

ومن حزمه أنه كان يبت عيونه وحواشيه فى الشرق والعرب لسطعوه على أخبار أعوانه وأعدائه وأنه كان يد وجبت الحرب بدر بانكروج ولم يأت التردد والإبطاء بعد ذلك إلا من خلاف جنده

ومن معرفته لجماهير أنه وصفهم أوجز وصف حين قال إنهم أتباع كل باعق، وإنيهم «هم الذين إذا اجتمعوا ضربوا وإذا تفرقوا بقعوا» لأنهم ان تفرقوا رجع أصحاب المهن إلى مهتهم فانتفع بهم الناس



فهذا قسط من الرأي الصائب، كافٍ لمهمة الحكم لو حصري به الإمام بالخلافة  
وبعصر عصر خلافة وليس بعصر دولة سيوية مضطربة في دور تأسيسها  
وتلقيق أحرارها.

بل هو قسط كافٍ لمهمة الحكم في دولة السيوية، لو تولاهما بعد استقرارها  
ولعرع من مكائد تأسيسها كما جاء عمر بن عبد العزيز في صلاحه وتقواه بعد  
الملك الأولين من بني أمية

ولكنه قسط من الرأي لا يسلك صاحبه بين أساطين الدهاء الذين يكيدون  
بالرأي ويلعبون الخافد على السواء.

\* \* \*

وبعد ذلك، فيقول إنه لم يحسر كثيراً بما فاتته من الدهاء ولم يكن يربح  
كثيراً لو استوفى منه أوفى نصيب، لأنه لابد من ملك أو خلافة

ولن يكون ملكاً بأدوات خليعة، ولا خليعة بأدوات ملك، ولن تبلغ به الحيلة أن  
يحارب رجلاً يريد لعصر ولعصر يريد، لأنه عصر ملك تهيأت له الدواعي  
الاحتماعية وتهيأ الرجل بخلافه وبياته ومعاونة أعتابه

ولم يكن معاوية زاهد في الخلافة على عهد أبي بكر أو عمر و عثمان، ولكن  
الخلافة كانت زاهدة فيه

فلما جاء عصر الملك، طلب الملك وأهلك يطليه

وقدما قال أبو العباس عم النبي، وقد رأى جيش المسلمين في فتح مكة «لعد  
أصبح ملك ابن أخيك عظيماً»

فهو الملك، أو هو جاء الدنيا، الذي تطلع إليه من شأته الأولى هي بيته وانتظر  
ثم انتظر حتى لاقاه على قدر موضعه في موضعه وقام به الموضع كما قام به،  
ونجحاً معاً على الحوفق والوفاء

وحين وحب أن يقع الفصل بين الملك والخلافة، وحب أن يكون على رأس  
عريق الخلافة

وحين وجب أن يقع الفصل بين أصحاب المصالح لراغبين في دوام المنفعة، وبين أصحاب لمبادئ والظلمات الرعيبين في الدين والإصلاح وجب أن يكون على رأس هذا الفريق دون ذلك الفريق

وحين وجب هذا وذاك وحولاً لا حيلة فيه لامتحويل، ولا اختيار فيه للمختار، وجب أن نصير خلافة على إلى ما صارت إليه، كأنما ما كان حظه من ابتداء والحدبة، وكأنما ما كان طريقه الذي ارتصاه هو أو أشار به المشيرون عليه

• • •

وقد يحس بالمؤرخ بعد المواجهة بين عدة الخلافة وعدة المنك في صراع على معاوية أن يشكر عدة أخرى لم تظهر في هذا الصراع، وقد ظهرت في مارق شتى من أخرج مارق التاريخ واعتد عليها أبطاله الكبار كثيراً في تأسيس الدول وقمع الثورات، فاختصروا الطريق وأراحوا أنفسهم من عباء سويل ويريد بها عدة السطش العاجل والمباينة الحاسمة كلف تأشيت العقد وبفسرت الحيلة ووجر الخلاص السريع

فقد علمنا مثلاً أن الأشعث بن قيس كان يعترض الإمام في كل خطوة من خطوات النصر ويثقل عليه بالمجاجة وأبعت في مواقف مكربة بصيق بها صدور

ولم يكن الأشعث بن قيس بالوحيد في هذا الباب، بل كان له شركاء من الخوارج وغير الخوارج يطهرون سألعت في غير موضعه ويذهبون به وراء حده، وريف بدعوا من الصرر في معسكر الإمام فوق صلع الأشعث بن قيس، على عظم الفارق بين سلطانهم وسلطانه

ألا يحظر على ابن هذا أن صرية من الصريبات انفاضية كانت تنح في هذا العنت المكرب حيث لا تنح العقوبة الشرعية أو الاحاييل السياسية؟

مدا لو أن الإمام حرد سبعة بين أولئك المشاغبيين، وأطاح برأس الأشعث بن قيس قبل أن يهيق أحد إلى نفسه ثم ولي على القوم من يقوم مقامه في رئاسة القوم ويكفل لهم لطاعه بيدهم لأمره؟ أكان بعيداً أن تفعل الرهبة فعلها، فيسكن المشاغبي ويهاب المحطاول ويحتجم المتفرد، ويقن الحلاف بعد ذلك على الإمام وعلى الرؤساء عامة؟

لم يكن ذلك بعيد

لكنه كذلك لم يكن فالمحقق، ولا بالمأمور.

ههي مجارعة ذات حدير، تصيب بأحدهما وقد تصيب بهما معا وقد يكون الحد الذي تصيب به هو الحد الذي من قبل الصارب دور الحد الذي من قبل المضروب.

وكل ما تفيدنا إياه هذه الملاحظة اعابرة على لتحقيق، أن الإمام رضى الله عنه لم يكن من أصحاب هذه الملكة التي اتصف بها بعض أبطال القلائل في أيام العصر بين عهدين متدبرين فكانت له صريره الشجاع، ولم يكن له صريره المعاصر أو العاصر.

ولم يصرب بالسيف قط، كأنه يقذف بالقذاح اب إلى الكسب وإما إلى الحسارة وإما كان يصرب به صرب أنجدي الذي يلتمس العلب بقوته وقوة إسمائه ولا يلتمسه من جولات أسهمه وملينات العيب.

على أننا - وقد سجلنا هذه الملاحظة - نقول أنه رضى الله عنه كان من أصحاب تلك الملكة التي عرف بها بعض المغامرين في أوقات الفصل بين العهود.

وبعرض أنه عمد إليها، فتعصبه في عسكره وطوعت له الحمد وأراحت من شغب الخارجين عليه ومنتشعبيين بالآراء والفتاوى من يمينه وشماله فماذا عسى أن يغير هذا كله من طبيعة الموقف الذي أحسنه؟ وكيف يكون لمخرج بين سياسة الملك، كما يطلبها العصر وسياسه الخلاف كما تصبها البقية الساقية من آداب العرة النبوية؟

أيسوس لإمام دويته ملكا دنيوي أم يسوسها خليفة بيوه؟

أيفرق الأموال على رعوس القوم وقائمة الجند وطلاب الدرف أم يوزمهم عيشة الحسك والشطف والجهاد؟

وإذا حرمهم وتألوا عليه مع خصمه أنهو الغالب إن بمصاب العصر ومقتضياته ودواعيه أم هم العالمين؟

وإذا أعطاهم ليدخوا يدع الملك الديوي وهو وحده بينهم الناسك المحنهد على  
سنة النبوة. فبستقيم له هذا الدور العجيب وهو في حوهره متدقص لا يستقيم،  
فالساسة التي تتبعها الإمام هي اسداسة اتى كانت مفيدة له مفوحة بين  
يديه، وهي السياسة التي لم يكن له محيد عنها، ولم يكن له أمل في النجاح من  
حاد عنها، لى غيرها سواء عليه اتفق حده بصربة من الصريات القاصية أم لم  
يتفقوا على دأبهم انذى رأبناه، وسواء لان لطلاب بدولة الدنيوية أم صعد على  
سنة النبوة والخلافة النبوية

• • •

ومعها يكن من حكم المعادين في سياسة الامام، فمن الجور الشديد أن يطالب  
بدفع شيء لا سبيل إلى دفعه، وأن يحاسب على مصير الخلافة وهي منهية لا  
محاله إلى ما انتهت إليه.

ومن الجور الشديد، أن يلقي عليه اللوم لأنه باء بشهادة الخلافة، ولا بد بها من  
شهيد.

وقد تجبعت له أعباء النقائص ولفارقات التي نشأت من قيده، ولم يكن يسلم  
منها خيفة من الخلاء بعد النبي صلوات الله عليه.

أحسن بها الصديق، مما هو ينحى على الصداقة ويحذرهم بواذر الترف  
الذي استناموا إليه

وأحسن بها لغارو وأثقلت كاهله، وهو الكاهن الصليح بأفدح الأعباء فصدق  
دعاً بالحياة وطقق يقول في سنة وفائه «اللهم كبرت سى وصعفت قوتى، وانتشرت  
رعيتى، فاقبصنى إليك غير مصنع ولا مفرط اللهم برقى شهادة فى سبيلك»

وأحسن بها عثمان فف فارق الدنيا حتى ترك الخلافة والملك عسكرين  
متناحرين، لا يرجع أحدهما إلا بالعبية على يده وصده

وكتب لعل بعد ذلك أن يتفقى الدولة الاسلامية بين هذين العسكرين، فلا فى  
معدوره أن يجمعهما إلى عسكر واحد، ولا فى معدوره أن يختار منهما عسكر الملك،  
ولا أن يختار عسكر الخلافة الدسبة فنظل على يديه خلافة نيبية بعد أوانها

وما لم يكن في مقدوره لم يكن في مقدور غيره، وإنه لإبصار قليل أن نعرف  
نه هذه المعادير الصادقة، وهو الذي جاء وحده بتلك النقائص ولأعداء

• • •

وقد نقد سياسة علي لمواقب الخلافة منه قبل البيعة كما نقد سياسته لقوات  
الخلافة منه بعد البيعة، وأحصى عليه بعض المؤرخين أنه تأخر فيها وعشرين سنة.  
فلم يخلف النبي، ولم يخلف أبا بكر، ولم يخلف عمر كأنه كان مستطيعاً أن يخلف  
أحدا منهم بعمل من جهده وسعى من تديره، فأعياه السعي والتدبير

ومقطع الفصل في هذا أن يرجع إلى العوائق التي حالت بينه وبين لخلافه قبل  
وصولها إليه، لعظم منها العائق الذي كان في أيدي الحوادث والعائق الذي كان  
في يديه، أو كانت له قسرة معقولة عليه

فمما لا شك فيه أن لإمام أ بكر إجحافاً أصابه في تحطيه بالبيعة إلى غيره بعد  
وفاة ابن عمه صوات الله عليه، وأنه كان يريد أن قرأينه من النبي مريه ترشحه  
للخلافة بعده لأنها فرع من البيعة على اعتفاده، وهم شجرة البيوة ومحط  
الرسالة، كما قال.

ومما لا شك فيه، أن شعوره هذا طبيعي في نفس الإنسانية فكيفما كان  
حظها من الرمد والقناعة، لأن تحطيه مع هذه المرية التي ترشحه للبيعة -  
يشبه أن يكون قدحا في مرآياه الأخرى، من علم وشجاعة وسابقة جهاد وعفة  
عن بطامع، أو يشبه أن يكون كراهه له وممالأة على الغض من قدره، ولم يبر  
من غرائر الحفوس أن يسوءها العدم فيها ونحط من مرآياها ومواجهتها  
بفسرة والكراهة.

غير أن الخلافة الإسلامية مسألة عالمية لا تورن بميران واحد، ولا يؤتم منها  
برأي واحد ولا بحق واحد وقد يصحى في سيدها بالعظيم والعظماء، إذ  
تعارضت الحقوق وتشعبت الآراء

ويشاء القدر أن تكون المرية الأولى في ميران علي هي اعائق الأول في سائر  
الخواريين، ومنها ميران النبي صلوات الله عليه.

فقد كان عليه السلام يأبى أن يثير العصبية في فريش وعلى القناس العربييه عامة، يعلمه يحظر هذه العصبية على الدعوة الجديدة، وكراهته أن يصور لإسلام للعرب كأبه سيادة هاشمية تتوارثها عصبه هاشم دون العصب من سائر العرب والمسلمين وقد رضى في سبيل هذا المقصد الحكيم، أن يجعل بيت أبي سفيان صوا للعبة في أمان اللاجئين إليه، وأصهر إلى أبي سفيان وند ابنه معاوية للكتابة به بين النخبة المخفارة من كتبيه، وربما حس لديه أن تنول الخلافة إلى على بعده إذا شاء المسلمون ذلك، ولكن على أن تكون خلافته اختياراً مرضياً كحسب غيره من أنصاره وأصحابه ويستوى منهم القريب والبعيد

ولم تكن الحكمة النبوية هي وحدها التي تأبى إثارة العصبية وتصوير الإسلام للعرب وللناس عامة في صورة السيادة الهاشمية، بل كانت الدعوة كلها في صميم أصولها تأبى هذا الذي أبته الحكمة النبوية وتحبته غابة ما في وسعها احتديه لأن الدعوة الإسلامية دعوة عالمية، تشمل الأمم كافة من عرب إلى عجم ومن مشرق إلى مغرب، وتقوم في أساسها على المساواة بين الناس ورد المفاصلة بينهم إلى الأعمال والأخلاق دون الأحساب والأعراق. فليس من المعقول أن تسود العالم كله أسرة هاشمية، ولا من المعقول أن يبنى الأساس على المساواة، وإن يقام الحكم على هذا التفصيل.

وإن أحق الناس أن يعطى إلى هذه الحكمة لهم أولئك الخلاة الدين وعموا أن وراثة الخلافة في بني هاشم حكم من أحكام الله وضرورة من ضرورات الدين.

فلو أنها كانت حكماً من أحكام الله، لكان أعجب شيء أن يموت النبي عليه السلام وليس له عقب من الذكور، وأن يختم القرآن وليس فيه نص صريح على خلافة أحد من آل البيت

ولو أنها كانت ضرورة من ضرورات الدين، أو ضرورات القضاء، لعدت في الدنيا كما يند العضاء المبرم، وحبطت كل خلافة تدزعها كما تحبط كل بدعة تناقض السنن الكونية

فلا النصوص الصريحة، ولا دلالة الحوادث على الإرادة الإلهية مما يويد أفعال بغلاة عن نرحيح الخلافة بالقرابة، أو حصر الخلافة في الأسرة الهاشمية.

وهنا هو العائق الأول الذي حال بين علي وبين خلافة ولا قدرة له عليه، وقد لحظه العرب ولحظته قريش خاصة، وذكره العاروق حين قال: «إن فريش اختارت لنفسها فأبت أن تجمع لبني هاشم بين النبوة والخلافة»

\* \* \*

ويرى بعض مؤرخين، أن فريشا كانت تحقد على الإمام وسحبه عن الخلافة لعدة أخرى تعثر به هذه العصبية التي أوقع التسامح بين بيوتها وبين بني هاشم، فقد بطش الإمام بنجر من حله البيوت القريشية في حروب المسلمين ومشركيين، وقتل من أعلام بني أمية وخدم عتبة بن ربيعة حر معاوية، والوليد بن عتبة خاله وجبلة خاد، وجميعهم من قتلاء في يوم بدر. عدا من قتلهم في الوقائع والعرواب الأخرى، فحفظ أقاربهم له هذه الثرات بعد تحولهم في الإسلام، وراهم حقدا أنهم لا يملكون الثأر من قتلاهم من الكفار وكانت حاله بعد تلك المدة كما قال ابن أبي الحديد: «كأنها حابه لو أمصت الخلافة إليه يوم وفاة ابن عمه، من طهارها في النفوس وهيجان ما في القلوب، حتى الأخلاف من قريش ولأحداث والفتن الذين لم يشهدوا وقائعهم وهتكته في أسلافهم وأبائهم، فعادوا به ما لو كانت الأسلاف أحباء لقصرته عن قتلها»

وقد علم الإمام هذا من قريش، عندما بس من موته وابتلى بالصريح والخبين من كيدها، فقال: «ما لي ولقريش» أما والله بعد غتلتهم كامرين ولأقتلهم مغبوبين والله لأبعرن الباطل حتى يظهر الحق من خاصرته فقل لقريش: «صحيح صحيحها»

ولو أن قريشا ودعه في سرها وجهرها ووقفت بيده وبين منافسبه على الخلافة لا نصده عنها ولا تدفعهم إليها، فقد كانت تلك عقبة أي عقبة

فأما وهي تحارب بعصبيتها وتحارب بدحولها، فتت في العقبة التي لا يذللها إلا بحرب أقوى من حرب قريش بعد وفاة النبي صلوات الله عليه ولم يكن حزب مد أقوى يومئذ من قريش في أرجاء الدولة الإسلامية بأسرها

\* \* \*

وقد سبق الإمام إلى الخلافة ثلاثة من شيوخ أصحابه هم أبو بكر وعمر وعثمان  
فإن نظرت إلى عائق العصبية لدى قدماء، فلا يرى شيئاً أقرب إلى طباع الأمور من  
سبق هؤلاء الثلاثة بأعيانهم إلى ولاية الخلافة بعد لعبي عليه السلام، لأنهم أقرب الناس  
أن يحتارهم لمسمون بعد خروج لعصبية لهائمية من مجال التزجيج والتدشيع  
فيس أقرب إلى طبائع الأمور هي بلاد عربية إسلامية من اتجاه الأنظار إلى  
مشيخة الإسلام هي السن والوحافة والسابقة الدينية، لاختبار الخليعة من بينها  
على السنة التي لم يغير قط في تواريخ العرب الأقدمين، ولم يغيرها الإسلام  
يحكم لعامة ولا يحكم الدين

ولم يكن الإمام عبد وفاة النبي من مشيخة الصحابة التي تنول إليها الرئاسة  
بداية بين «وي الأسان» ممن مارسوا الشورى والزعامة في حياته عليه السلام  
لأنه كان يومئذ قد تجاوز الثلاثين بقليل وكان أبو بكر وعمر وعثمان قد نشأوا  
في جور السبي بصع عشرة سنة قبل ظهور علي في الحياة العامة، وهم يشيرون  
على النبي وبخامس الدين ويجمعون الأنصار ويدان لهم بتوقيع والولاء  
والعائق الذي قام بين علي وبين الخلافة هو في طريق هؤلاء الثلاثة السابقين  
تمهيد وتقريب.

ويعني به عائق العصبية الهاشمية

لأن قريش لا تنس على بني تيم ولا بني عدي، ولا بني أمية هي رئاسة  
عثمان خاصة كما تنس على بني هاشم، إذ تحتمل لهم النبوة والخلافة

• • •

والإمام نفسه لم يفت أن يدرك هذا بثاقب نظره، حين قال وقد تجاوزته  
لخلافة لعمري الثالثة بعد موت «الهاروق» «إن الناس ينظرون إلى قريش، وقريش  
تنظر إلى بيتها فتقول «إن ولي عليكم بنو هاشم لم تحرج منهم أئداً وما كانت  
في غيرها من قريش تدولتموها بينكم»

وإذ حسم هذا لعائق إلى عائق السن والتوغير للمشيخة المقدمة فهما  
مبعدان للإمام عن الخلافة بمقدار ما يقربان من الوفاء.



نعم إن فارق السن قد تقارب بعد موت الفاروق وبلغ للإمام الخامسة والأربعين، وسبقت له في المشورة سوابق ماثورات فأصبح الفارق بينه وبين من يكبرونه مزيه تعير على العمل والجهد وتنفى مظنة الصعف والتواكل، ولكن الذي كسبه بهذه المزية خسره بإردياء المطامع الديوية وبأس الرؤساء من الوفر والنعمة على يديه، واعتقاد الطامعين أنهم أقرب إلى بعض الأمل في بين عثمان وتقدم سنه منهم إلى أمل من الأمل في شدة الإمام وعسر حساب

ويعتد الحفوة بينه وبين قريش على حالها، لم يكفك منها تقادم العهد كما قال ابن أبي الحديد.

وعلى هذه الحفوة في القبلة كلها، دخلت في الأمر دخله البواعث الشخصية التي لا يسلم منها عمر من أعمار بني الإنسان في زمن من الأزمان فقد اجتمع رهط استورى الدين مدبهم الفاروق لاختيار الخليفة من بعده، فتقدم بينهم عبد الرحمن بن عوف فخلع نفسه من الأمر كله ليتاح له أن يستشير الناس باسمهم ويعين البيعة على عهدتهم، وقيس إنه أسس مع زبير وسعد بن أبي وقاص صيلا موقوت إلى علي وانحراهما موقوتا عن عثمان، فسارع إلى التمسير وبيع عثمان وجرأه الحاضرون مخافة الفتنة والشقاق

وكان عبد الرحمن بن عوف صهر لعثمان، لأنه تزوج أخته لأمه أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط

ويعصى الحو أن يقال في هذا اسقام بنبيعة عثمان قد تمت بدهاق بين المسلمين لم يقدسه خلاف معدره، فليست كلمه عبد الرحمن بن عوف هي التي خدلت عينا وقد تمت عثمان عنه، إذ لو كانت هناك معالية شديدة بين حريين متكاهلين لما استقامت البيعة لعثمان بكلمه من عبد الرحمن بن عوف. وهو واحد من خمسة أو ستة إذا أشركنا معهم عبد الله بن عمر بن الخطاب.

• • •

ثم يربع الإمام بعد مقتل عثمان، فهل تحوت قريش عن حفوتها، أو نظرت إلى السياسة الهاشمية نصرته غير نظرتها؟

كلا.

بل جاءت البيعة هي العدة يوم خفت فيها صوت فريش، وهبطت سمعة حكامها يوم أصبحت البيعة ثورة على فريش، نكر عليها الأثرى بالملك والأثرة بالعبائم والأمصار ويوم انقسم المجتمع لإسلامي قسيمي الدين النساء وتداخلت حيا حتى فصلتهما أحداث فصصها بحاسم في خلافة عثمان قسم يريد لرجعة إلى الخلافة والآداب النبوية وقسم يريد لمصى في الملك والدولة لسيوية

هأى انقسمين كان قسم على كائنا ما كان سعيه واحتهاه؟ وأيه سياسته كانت نعيه على مشكله الخلافة من بدايتها بعد وفاه لبي الى ختامها القاحل بعد مقتل عثمان؟

كل سياسة له لم تكن بتحديد به عن الخاتمة لمحتومة أهل محدد وكل ما كان من تدبير الحوادث أو من تدبيره، فهو على هذا لملقنى لى يتلاحق عنه الإسراع والإبطاء

وعلى هذا يسعى أن يرجع إلى علة غير سياسة على لتعليل انعوى لى قامت دون مبدعته بالخلافة قبل الصديق والهاروق وعثمان

فهو غير مسئول عن نظرة لعصية اسى نظرت بها فريش إلى السيادة البهشية وهو غير مسئول عن سته التى تأخرت به عن مسيخة الصحابة من روى السابقة فى الجهاد والرعامه ولأصاله بين روى الأسنن و لاختار

وهو غير مسئول عن الصفة العالمة التى جعلت تأسس الاسلام على أسره وحدة فى لعالم كله أمر ملحوظ بالتوحس والإحكام منذ اللحظة الأولى

نعم قد يسأل الإمام عن علاقته بأساس وقدرته على تأليفهم بالامال، والمعاملات، بآسوا الله ويرفعوا حجاب انفسهم بينهم وبينه، ويؤثروه على غيره بالخلافة، أملا فى بره واصحتمسا إلى حفاظته ورده

وقد يرد على بعض الخواطر، أن سياسة الدولة الديوية أو سياسة الارضاء بالمنافع والوعود، كانت جدى عليه من آداب لخلافة الدينية واخلاق بتمكيه ولا وأخرا بين فريش وقبائل العرب عامة

عهد هي رأيهم مأخذ يرجع إلى شخصه وأعماله، ويسأل عنه كم يسأل  
الإنسان عن عمله وتصريف رادته وفكره ولا يحور أن يرجع به إلى حكم  
الحوادث القاهرة، وسلطان المصادفات التي لا قبل له بتدليلها

ولكن الواقع أن هذه السياسة - لم تكن لمحديه شيئاً بعد وفاة النبي، ولا بعد  
مقتل عثمان..

بعد النبي عليه السلام، لم تكن ذخائر الفتوح قد استفاصت في الأيدي  
وأنشأت في المجتمع الإسلامي طبقة مسموعة الصوت تحرض عليها وتستريدها

فالذي يحصل في سبيل الحكم سلاح هذه المصانع إنما كان يناقض بسلاح  
غير موحود. بل كان يمد من سلاحا ماصيا يهزم أمامه لا محنة وهو سلاح  
الحماسة الدينية التي غلبت في صبرياتها الأولى كل سلاح

أما بعد مقتل عثمان، فأبعد الأمور عن التخيل أن يغلب على معاوية في سوق  
المصانع الدينية لأن معاوية قد ذهب بها أهبطه قبل عشرين سنة، وجمع لها  
أنصاره وكبرها كموره في بلاد واسعة بين جند مطيع

ولو توافق لعلّ مادة هذه السياسة، لما توافرت أعوانها ولمساعدون عليها  
فليس أقل نفعاً في هذا المضمار من أعوانه الذين ثاروا على سياسه المصانع  
وباءوا من أحلها بدم خليفه واجتمعوا على السمر، قاصدين أو غير قاصدين فلا  
يديرون أنفسهم إلى نهج كنهج معاوية ولو أرادوه

رأعب الص أن علياً كان يخسر بهذه السياسة أولئك الذين أحبوه، ولا يرجع بها  
أولئك الذين أبغضوه..

بعد حبيته أدب الخلافة إلى كل طيفه تكره استعمال الحكم، ولا مطمع لها فيه  
فكل بلاد خلت من عصبة امرشحين للحكم، فقد كانت من حربه وشعبته بغير  
استثناء، فكان من حربه شعب اليمن ومصر وفارس والعراق، وبشأت في اليمن -  
وقد عهدت حكمه قديماً - تلك الصائفة السبئية التي غت في حبه حتى ارتفعت  
به إلى مرتبة التفديس، وبتثرت في مصر وفارس بدور تلك الشيعة الفاطمية  
والإمامية التي ظلت كامنة في تربتها حتى أخرجت شطأها بعد أحيايه وشذت  
الشام لأنها كانت في يد معاوية، وشذت أطراف من العراق أول الأمر لأنها كانت

هي يد طلحه وانربير، ولم يشذ عن هذه القاعدة بلد من البلدان الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها. ولولا أن سواد الناس لا يعملون بغير عصبة من القادة، وإن العصب من القادة كانوا كلنا وجدوا في بقعة من البقاع وجد معهم البقع والاستعلاء لقد كانت محبة أولئك السواد أنفع له من عصب معاوية أجمعين.

فأعجب الظن كما أسلفنا أن علماً كان يحسر هؤلاء باتباعه سياسة الدولة الديوية، ولا يكسب العصب التي باصته العدة وأيقنت أنه حائل بينها وبين ما طمحت إليه من الصولة والثراء.

وهذا على تقدير المقدرين أن علماً يواخذ لاجتنابه هذه السياسة وأنه لو اتبعها لكانت إحدى عليه.

ولست هي إحدى عليه لو اتبعها، ولا هو على اجتنبها معلوم.

وتقصي يد هذه التقديرات جمعاً إلى بتيحه واضحة تلخصها هي كلمات وحيرة ويعتقد أنها أعدل الأقوال في وصف تلك السياسة التي كثرت فيها مطرح اسقد والدفاع.

سياسة على لم يورطه هي غلطات كان يسهل عليه اجتنبها باتباع سياسة أخرى وهي كذلك لم تباعه مأرب مستعصية، كان يعر عليه بلوعها في موضعه الذي وصع فيه وعلى مجراه إحدى جرى عليه.

فلست هي علة فشل منترع، ولا علة نجاح منترع، أو هي لا تستدعي الفشل من حيث لم يخلق، ولا تستدعي النجاح من حيث لم يسلس له قيات.

ورأيت في سياسته فهما وعلما، ولكن لم ير فيها الحيلة العملية التي هي إلى العريزة أقرب منها إلى الذكاء.

مكان نجم الغليفة، لو صادق أوان الخلافة

وكان مع الملك بو حاء بعد توطيد الملك واستغباته عن المساومة والإسفاف. ولكنه لم يأت في أوان خلافة ولا في أوان ملك موصد، فحمل أعياء النقيصين، وأخفق حيث ينبغي أن يحقق أو حيث يعييه أن يجمع وتلك آية الشهيد



## حكومتہ

كانت الدولة الإسلامية الناشئة على شفا الخطر في إبان الفتنة الداخلية بين عليّ ومعاوية ونكبت وفيت منه لأن عوامل الأمان الذي يحيط بها كانت أقوى من عوامل الخطر الذي يهددها وتقلص عوامل الأمان في وفاء بين اثنين

أحدهما، ن الإسلام كان دعوة طبيعية تلقاه العالم وهو مستعد لها مستريح إسها، فرسخت دعائمه وامتنعت حدوده بعد أعوام قليلة من ظهوره، وسكن إليه الناس مؤمنين بدوام ظله وشمول عدله، سواء منهم من دخل فيه ومن أوى إلى حكمه وهو ياق على اعتقده.

وتاسيها، أن أعداء الإسلام كانوا في شاعل عنه بما أصابهم من الزمن وأحدق بهم من المخاوف، وربما صبح في الفتنة الإسلامية يومئذ ما يصح في كثير من الطوارق التاريخية الكبرى، وهي أنها لن تكون شرا محصا في جميع عوانبها ولاخلو من الخير على قصد من تريها. فإن هذه الفتنة قد أعرب أعداء الإسلام بالانتظر، ووقعت في روعهم أنهم غيور عن التحفر والوثوب الذي يشق عليهم جهده، وهم في تلك الحالة من الحهد والإعباء فقعدت دوة الروم بهجمات صعيعة تلقاها معاوية بالجلد والأساة، وألهى انقوم عنه ببعض الإقاوات والموافل، فتراجعوا متريصين إلى أن يقصى الخلاف بين لمسلمين قصاءه، وهم وادعون مكفيون شر القتال. فكان هذا الانتظار الخادع حائبا من حوئب الخير في الفتنة الإسلامية التي فاصت يومئذ بالشروع

وعلى هذا انقصت أيام عليّ، وليس للحكومة الإسلامية سياسه خارجيه تحسب من سياسة الفسوح، أو سياسة تدفع أو سياسة للمقاومة والاصطلاح وكل ما يدور الكلام عليه عن حكومة عليّ، فهو من قبيل سياسة الحكم بينه وبين رعاياه أو هو السياسة الداخلية كما يسميها في العصر الحديث

ومن اليسير أن تعرف سياسة الإمام بنده وبين رعاياه بعبر حاحة إلى الإطالة  
في التعريف وسره الامثال

لأنها سياسة لرحل الذي شاء القدر . جعله فيه للحلافة الدينية في  
بصالتها الأخير مع الدولة الديوية

فحين يتخذ ما شئنا من طريقين متقابلين في طريق على هي طريق الحلافة  
المعزومة، حين تفصل الدولة اسيوية مقابلته الخصم للخصم أو اسقيص للقيص،  
أو هي أفرط الطريقين إلى المساواة وأدناها إلى رعاية الصعفاء  
والناس في الحقوق سواء

لا محابة ولا إحفاف بصعيف وقد عمد إلى القطائع التي ورعت قبله على  
المقربين ولرؤساء، فانتزعها من القابضين عليها وردها إلى مال المسمين  
لوربعها بين من يستحقونها على سبب المساواة وقال : والله لو وحدثه قد تزوج  
به النساء ومنك به الإمام لردته، فإن في العمل سعة ومن صدق عليه انعدل  
بالحور عليه أضيّق

ومرض الرفق بالرعية على كل وان، فلا يرهاق ولا استعلاء ولو كانت الحكومة  
هي صاحبة الحق في المال

فمن وصاياه المكررة لولاته «أصفوا الناس من أنفسكم واصبروا لحوائجهم  
فإنكم خسر الرعية ولا تحسموا أحدا عن حاجته ولا تحبسوه عن طليته ولا  
تبيعن للناس في الحراج كسوة شتاء ولا صيف ولا دابة يعتملون عليها، ولا عبيد،  
ولا تصرين أحدا سوطا لمكان درهم»

ومن وصاياه هي تحصيل الخرج والصدقات . امس إلىهم بالسكينة والرفق  
حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم ولا جدع باتحية بهم ثم تقول: عباد الله  
أرسلني إليكم ولياً لله وخليفته لأخذ منكم حق الله في أموالكم، فهل لله في  
أموالكم حو فتؤدوه إلى ربه . هل ما هناك من لا، فلا تراجع. وإن أعم لك صعب،  
فامطلق معه من غير أن تخيفه وتؤدعه أو تعسه أو ترهقه، فخذ ما أعطاك من  
ذهب أو فضة، فإن كان له ماشية أو ابل فلا تدخلها لا ياديه، فإن أكلوها له  
فإذا أنجمها فلا تدخل عبيداً دخول متسلط عليه ولا عبيد به ولا تنهرن بهيمة

ولا تفرعها ولا تسوع صاحبها فيها، واصدع المال صدعين، ثم خيرة، فبد،  
اختار فلا تعرضن لما ختاره، فلا تزل كذلك حتى يبقى ما فيه وفاء حق الله في  
ماله. فاتبض حق الله منه، فإن استقالك فأقله .

وكن دستوره في تحصيل الصرائب المفروضة على الناس، أن اسظر في  
عماره الارض أبغ من النظر في استحلاب الصرية، فكان يكتب إلى واليه «تفقد  
مر لخراج بما يصلح أهله، فإن في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم،  
ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم لأن الناس كلهم عيار على اخراج وأهله وليكن  
سطر في عمرة الأرض أبغ من سطر في استحلاب الخراج لأن ذلك لا يدرك إلا  
باعتبره، ومن حلب الخراج بعير عماره أخرب البلاء وأهلك العباد، ولم يستقم  
أمره إلا قللاً وإنما يؤتى خراب الارض من إغوار أهلها، وإنما يعور أهلها إسراف  
لولاية على الجمع، وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفعهم باعتبر .

أما دستوره في الولاية والعمال، فخلاصته ما كتب به إلى الأشتر ليحكي يقول  
له «اسظر في أمور عمالك، فاستعملهم اختباراً ولا تولهم محابدة وآثرة فبينهم  
جماع من شعب انحر والحيادة، وتوخ مدبهم أهل النحرمة وحباء من أهل  
البيوتات الصالحة ولقدّم في الإسلام، فبينهم أكثر أخلاقاً وأصح إعراضاً وأقر من  
المطامع إسرافاً، وأبغ في عواقب الأمور بضراً ثم أسبع عليهم الأوراق، فإن ذلك  
قوة لهم على استصلاح أنفسهم، وعنى لهم عن تناول ما تحب أيديهم، وحنة  
عليهم إن خالفوا امرك أو تلموا أمانتك، ثم تفقد عملهم وابتعث العيون من أهل  
الصدق والعيون عليهم فإن تعاهدك في السر لأموالهم حسوة بهم على استعمال  
الأمانة والرفق بالرعية»

وعلى هذه العبادة باستصلاح أحوال الولاية والعمال، كان ينهى أشد ينهى عن  
كشف معائب الناس، أو كما كان يقول في وصية ولاته «ولكن أبع رعينك منك  
وأشأهم عندك أطلبهم لمعائب الناس فإن في الناس عيوباً، إنوالى أحق من  
سترها فلا تكشف عما عيب عيب منها، وإنما عليك تطهير ما صهر لك»

وكان ينهى عن بطانة سوء مع حثه على اتخاذ اعيون والجواسيس، فقال في  
وصيته لمحمد بن أبي بكر «لا تدخلن في مشورتك بخيلاً يعدن بك عن الفصل  
ويعدن الفقر، ولا جباناً يضعفك عن الأمور، ولا حريصاً يرين لك الشره بالحرور

فإن البخل والجبن والحرص عرائر شتى يجمعها سوء الظن بالله، إن شر وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيراً، ومن شركهم في الآثام فلا يكون لك بطانة، فإنهم أعوان الأئمة وإخوان الظلمة، وأنت واحد منهم خير الخلف، ممن له مثل آرائهم ويفداهم وليس عليه مثل أصدارهم وأوزارهم»

وتم بذكر عط شيف من سياسة البوية، ثم صنع مثله في عهده، على كثرة الإعرء حوله باصطلاح لتقية والمدارة والهوادة قليلاً مع الأقرباء ونوى الأخطار.

ومن رعم غير ذلك، من تقديده في عصره أو بعد عصره، فإنه هو أخذ في امفارنة بالأشكار والحروف دون البواطن والعياب

إذ كان مما عين مثلاً ابن عنيأ أقام عبد الله بن عباس على بصرة. وعبيد الله بن العباس على اليمس، وصحمد بن أبي بكر بن روحته على مصر وهم أقرباؤه وخاصة أهل بهو دن يصنع ما أكره على حكومة عثمان من إثارة الأقرباء بالولايات واقصده الآخرين عنها.

ولكنها كما قلنا مقاربه بالأشكار والحروف دون البواطن والغايت، لأن المقاربة الصحيحة بين العميين سمر عن فارو يعيد كالعارق بين البقيص والبقيص.

فبنو هاشم لم يكن لهم متسع لعمل أو ولاية في غير حكومة الإمام، ولم يكن للإمام معتمد على غيرهم بعد أن حاربتة قريش، وشاعت انفرقة والشغب بين أعوانه من أبناء الأمصار

وهم مع هذ لم يؤثروا بالولايات كلها، ولم مؤثروا بأذى خصهم منها ليستغلوه ويجمعوا الثراء من غنائمه وأرزاقه بن كانوا يحاسبون على ما في أيديهم أعسر حساب، وكانوا التصييقه عليهم في المراقبه يتركرون ولايانهم ويستعملون منها، كما فع ابن عباس حين هجر لبصرة إلى مكة.

وقد بلغ من حسابه لبلافة أنه كان يحاسبهم على حضور الولائم التي لا يحصل بهم حضورها فكسب إلى عثمان بن حنيف الأتصاري عمله على البصرة «أما بعد يا بن حنيف، فقد بلعني أن رجلاً من فية أهل البصرة دعاني إلى مأدبة



فأسرعت إليها تستطاب لك الأنوار وتنقل إليك الحفان. وما ظلمت أنك تجيب إلى  
طعام قوم عائلهم محفو وعيهم مدعو، فانظر إلى ما نقصه من هذا المعصم.  
فما أشته عليك علمه والعظه وما أيعنت بطيب وجهه هنل منه»

واستكثر على شريح قاصيه أن يبني دارا بثعابين ديناراً، وهو يرزق حمسائة  
درهم. وحاسب على أقل من هذا من هو أقل من شريح أمانة هي القضاء وحرر  
في الدين

فلو أن الإمام اختص أقرباءه بالولايات اتى يحاسبون عليها هذا الحساب،  
لما كان في اختصاصه بياهم مستبجح حق ولا مستبجح مال فكيف وهو لا  
يختصهم إلا بالعدل منها، ولا يختصهم وله مدوحة عنهم أو يختصهم بهم دون  
غيرهم في القدرة والأمانة؟

والمعارنة هه مقارنة أشكال وحروف وكل ما توحى إلى انقاد بها أنه يذكر  
الأقرباء هنا والأقرباء هنك

وقد انقسمت طريق الخلافة وطريق الدولة الدنيوية في كل أمر من الأمور على  
عهد الإمام ولم تنقسم في مسأله الولاة أو مسألة الاستعلاء وكفى

وأكرر ما يذكر من انقسام الطريقتين في عهده فقام الفكرة العالمية في حاد  
العصبية بالقبيلة أو بالوحدة الوطنية.

فالدولة الدنيوية تشد أزرها بالعصبية الحسية، والخلافة الدينية تشد أزرها  
بالإخاء بين الشعوب وبطالان العوارق بين الأجناس.

وقد كانت القبيلة من أنصار الإمام، تقاشر انقبيلة من أنصار معاوية في سبيل  
الرأي والعقيدة.

وكان أنصار الإمام أبدا من الفرس والمعاربة والمصريين أكثر من أنصاره بين  
قريش خاصة، وبين بني هاشم على الأخص، وبين قبائل العرب على التعميم

وهذه الامتزاج بين افكرة العالمية وبين إمامة على أو خلافته، أقطع لأدلة  
على الوحدة بين أرامه وأواز اخلافه. فإذا ذهب هه وجب أن يذهب ذاك، أي كانت  
السياسة المتروكة، وبالعامة بلغ نصيبها من السداد والصواب.

ولما أن نعلم هذا الحكم الإنساني في كل شأن من شئون الحكومة، قصي به على في عهده أو عهود الخلفاء من قبله

فالروح الإنساني هو قوام الحكومة الامامية، كما يدعي أن يكون وهو قوامها كما كانت على يديه جهد الطاقة الادمية وهي طققة لها مالها من حدود

حتى إلى عمر بن الخطاب بامرأة رابية يسسه في حملها، فاستغنى الإمام فاعتنى بوجوب الإبقاء عليها حتى تصبح حبسها، وقال له: «إن كان لك سلطان عليها، فلا سلطان لك على صافي بطونها».

واسترع امرة من أيدي الموكلين بإقامة الحد عليها وسأله عمر فقال ما سمعت النبي ﷺ يقول رجع القلم عن ثلاثة عن العائم حتى يستيقظ، وعن لصغير حتى يكبر، وعن المبني حتى يعقر» قال «بلى» قال «فهذه متلاة ببي فلان» قلعه أتاها وهر بها» قال عمر «لا أدري» قال «وأما لا أدري» فترك رجحها بلشك في عقلها

وأنى عمر بامرأة أحدها العنث فحزت على راع فاستسفته فابى أن يسقيها إلا أن تمكنه من نفسها ففعلت، فشاور الساس في رحمها، فقال على «هذه مصطرة إلى ذلك» فخل سبيلها»

وهذه أمثلة قليلة من أمثلة كثيرة في العصاص وتفسير الشريعة

غير أنه قد حار عن هذه السنه في أمر واحد خالفه فيه بعض فقهاء عصره، ومنهم ابن عمه عبد الله بن عباس

وذلك هو إحراقه لرواقص الذين عبدوه ووصفوه بصفات الآلهة، وأنوا أن يؤوبوا عن صلاتهم مرة بعد مرة، وقس بهم أصروا على عنادهم وهم يحرقون. فتحدوا من تعديده لهم بالنار دليلا على أنه هو المعبود إذ لا يعذب بالنار إلا الله

فهؤلاء المفسدون المغتوبون، قد استحقوا عقوبة الموت بقضاء الشريعة وقضاء الدولة التي لا تقوم لها نظام على هذه الصلالة ولكم لاجراوا بالنار صرامة لاتوجبها ضرورة العقاب، وليس في احتسابها خطر على الشريعة، ولا على النظام.

إنما شيع الإمام في هذه الصرامة أنه كان هو المستهدف لتلك لصلاته، وهو مصبة الريبة في الهوابة فيها فهو يبره عدله عن كل من حيث تظن بالهوابة حذبع نظيون وعد حرق الدين ألوهه وبهى عن هتار الخورج الدين حكموا بكفره، لا أن يفسدوا في الأرض أو يبدعوا بالعدون على يرى، وفي هذا الانصاف بين مؤنبيه ومكفره شفعة من تلك الصرامة في العقاب

وكان الإمام يذكر ابد، هي حكومته أن لحقوق العامة لها شأن لا يسى مع حقوق الأفراد

ومن ذلك ما نقله الطبري عن بعض الأسايد، حيث قال «رأيت علياً عليه السلام خارجاً من همدان، مرأى فتين يقتتلان ففرق بينهما، ثم مضى فسمع صريراً باعوثاً بالله فخرج يحصر نحوه حتى سمعت خفق نعله، وهو يقول «أناك العوث» فإذا رجل يلارم رجلاً فقال «يا أمير المؤمنين بعث هذا ثوباً بتسعة دراهم وسرقت عليه ألا يعطيني شعوراً ولا مقطوعاً، فأتيت به هذه الدراهم ليبدى لي عيبى فلرمته بلطمى» فقال «بدله» ثم قال «بيبتك على بلطمة» فأباه بالبيعة قال «دوك فاقصر» قال «إني قد عفوت بأمر المؤمنين» قال «إنما أردت أن احباط في حقك» ثم صرّب الرجل تسع دراهم، وقال «هذا حق نسلطان»

وكأن يكرر هذا الحكم في كل ما يشابهه من أمثال هذا العدون، وهو أشبه المذاهب يذهب الحكومات العصرية في ابقصاص.

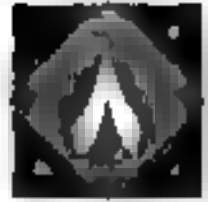
ويقال الكثير عن سماح الإمام في الحكومة وسناسة ابرعية مما يقبى فيه هذا الإجمال عن التوسع في التفصيل.

ولكن الذي لا يسى في سبق الكلام عن الإمامة والدعوة لعامة أنه رضى الله عنه كان أول من خرج بالعاصه من لمدينة إلى أرض غير أرض الحار وهو الحجارى سين الحارزين.

وقد اختار الكوفة، فكانت أوفق عاصمة للإمامة العالمية في تلك المرحلة من مراحل الدولة الإسلامية

لأنها كانت ملتقى أشعوب من جميع الأحاس، وكانت بمثابة لتجارة بين  
الهند وفارس واليمن والعراق وإسّام، وكانت العاصمة الثقافية التي ترعرعت  
فيها مدارس الكتابة واللغة والقراءات والأسباب والأفانين اشعرية واربوايات  
مهي أليق العواصم في ذلك العصر يحكومة إمام، وما زالت الإمامة لاحقة بعلى  
ومحبطة به حيث تحول وحيث أقام..

\* \* \*



## النبي والإمام والصحابة

أحاديث النبي عليه السلام في فصل عليٍّ ومحنته متواترة في كتب الحديث المشهورة. منها ما انفرد به وهو حديث الخيمة الذي رواه الصديق رضي الله عنه حيث قال: «رأيت رسول الله ﷺ خيم خيمة وهو متكئ على قوس عربية، وفي الخيمة علي ومطاعة واحسن والحسين، فقال: معشر المسلمين! أب سلم لمن سالم أهل الخيمة حرب لمن حاربهم، ولي لمن والاهم، لا يحبهم إلا سعيد الحد طيب لمولاه ولا يبغضهم إلا شقي الحد رديء الولادة».

ومنها ما اشترك فيه هو وغيره، وهو الذي روته السيدة عائشة حيث سئلت:

«أى الناس أحب إلى رسول الله ﷺ؟» قالت: «مطاعة» فعين من الرجال؟ قالت: زوجها إن كان ما علمت سواها قواماً».

وقد روى حديث في هذا المعنى، حيث سئل رسول الله عن أحب الناس إليه، يقال: «من النساء عائشة، ومن الرجال أبوها».

ولا تناقض بين الحديثين، إذ كانت السيدة عائشة هي التي تروى الحديث الأول، وتخرج من كلامها كما يخرج المتكلم من عمره كلامه، أو كانت تروى عن أقرباء النبي من لحمه ودمه فتقول ما تعلم عن غيرها.

وهذان موضحان من الأحاديث النبوية في فصل عليٍّ ومحنته ومزلته عند الله ونبيه، وهي تعد بالعشرات.

وأصحاب المذاهب يختلفون في تأويل هذه الأحاديث، وفي أسانيدها ويوجهونها حيث اتجهوا من الشيع للإمام أو انتشيع عليه وهو شرح طويل لايهما منه هنا أن ننصر فيه فريقاً على فريق، أو نرجح مذهباً على مذهب إذ ليس فهم الإمام موعوفاً على تعليق أي الفريقين ويعرّيو أي المذهبيين، وفهم للإمام على حقيقته النفسية والتاريخية هو كل ما يعنيه.

فهم يختلف الرواة في تأويل الأحاديث فإحدى يسعك أن تحرم به من وراء اختلافهم، أن علياً كان من أحب الناس إلى النبي، إن لم يكن أحبهم إليه على الإطلاق.

لقد كان النبي عليه السلام يغمر بالحب كل من أحاط به من العرب والأعربيين، فإني عجب أن يحصر بالحب من بينهم بسائداً، كان ابن عمه الذي كله وحماه، وكان ربيبه الذي أوسك أن يتبوء، وكان زوج امته العريضة عنده، وكان بدله في العرائش وكان نصيره الذي أبلى أحسن اليلاء في جميع غزواته وتلميذه الذي علم من فقه الدين ما لم يعلمه ناسئ في سنه.

حب نبي لهد الإنسان حقيقة لا حاجة بها إلى تأويل الرواة ولا إلى تفسير العصوص، لأنها حقيقة طبيعية، أو حقيقة بديهية قائمة من وراء كل خلاف.

ومما لا خلاف فيه كذلك، أنه عليه السلام كان لا يكتفى بحبه إياه بل كان يسره ويرصيه أن يحبّه إلى الناس، وكان يسوّه ويقصيه أن يسمع من يكرمه ويحبه.

بعث رسول الله علياً في سره ببعض الخمس فاصطفى منه سبعة، وبلغ أربعة من شهود السرعة أن يبلغوا ذلك إلى رسول الله وكان المسلمون إذا قدموا من سفر بدءوا، يارسول، فسلحوا عليه وأبعوه ما عندهم ثم ابصرهم إلى رحابهم فعلم أحد الأربعة وحدث الرسول بما رأى فأعرض عنه، ومن أصحابه أنه لم يسمعه فتناوبوا الحديث واحداً بعد واحد في معنى كلامه فلما فرغ اربع من حديثه أقبل عليه رسول الله وقد تغير وجهه فقال «ما تريدون من علي؟» ما تريدون من علي؟ «ما تريدون من علي؟» عليّ مني وأنا منه وهو ولي كل مؤمن بعدي» وقال لأحدهم في روايات أخرى «أبغض علياً» قال «نعم» قال «لا تبغضه، فإن له في الخمس أكثر من ذلك، أي أكثر من السبعة التي اصطفاها، لا تبغضه، وإن كنت تحبه فأرد له حياء»

• • •

وبعث رسول الله علياً إلى اليمن، فسأله جماعة من أتباعه أن يركبهم إلى الصقة ليروحوا إبلهم فأبى فشكوه إلى رسول الله بعد رجعتهم وتولى شكايتهم سعد بن مالك بن المتهيد، فقال «يارسول الله لقينا من علي من العظّة وسوء

«الصحية ولتصويرو» وخصى بعد ما لقيه حتى إذا كان في وسط كلامه ضرب رسول الله على فخذه، وهنق به «ياسعد بن مالك بن الشهيد بعض قوتك لاخبت على؟ فوالله لقد علجت أمة جيش في سبيل الله»

وشك بعض الناس مثل هذه الشكوى، فقام رسول الله فيهم خصيباً يقول لهم «يأسهوا الناس لا تشكوا علماً فوالله إنه لجيش في ذات الله»

ويلوح لنا أن النبي عليه السلام كان يحب علياً ويحببه إلى الناس، يمهّد له سبيل الخلافة في وقت من الأوقات، ولكن على أن يحاربه الناس طواعية وحباً لا أن يكون خياره من حقوق العصبية الهاشمية، فبه عليه السلام قد تقى هذه العصبية جهدهم اتقاه، ولم يحذر خطر عسى الدين أشد من حذره أن يحسبها الناس سبيلاً إلى الملك والدولة في بني هاشم، وقد حرم نفسه اشريعة حظوظ الدنيا وأقصى معظم بني هاشم عن الولايه والعمالة لبقي هذه بضعة ويدع الحكم للناس يختارون من يرضونه له بالرأى والمصلحة.

فالتزم في استمهدهم لعلى وسائل مسموحة لا تتعدى التدريب والكفالة إلى التقديم وانوكاه، أرسله في سرية إلى بني نحر فحيلة بني سعد اليهودية، وأرسله إلى اليمن لسدوة إلى الإسلام، وأرسله إلى مبي ليقرأ على الناس سورة براءة وبين لهم حكم الدين في حج المشركين وزيارته بيت الله، وأقامه على نصرة حين خرج المسلمون إلى عروة بنوك ولم يفقه مع هذا كله أن يلمح الجفوة بينه وبين الناس وأن يكله إلى السن تعمل عملها مع الأيام، ويكلهم في شأنه إلى ما ارتصوه، عسى أن تسبح للفرصة لمزيد من الألفة بحتمهم وبينه

هذه فبما يعتقد أصبح علاقه بتحليلها العقير، وبني عنها احداث بين النبي وابن عمه العظيم.

وربما كانت أصبح العلاقات المعقولة لأنها هي وحدها العلاقة الممكنة المأمورة، وكل ما عداها فهو بعد من الإمكان بعده من الأمن

فهو يحبه ويمهّد له وينظر إلى عده ويسره أن يحبه الناس كما أحبه، وأن يحين الحين الذي يكلون فيه أمورهم إليه.

وكل ما عدا ذلك، فليس بالممكن وليس بالمعقول

ليس بالممكن أن يكره به التعديم والكرامة

وليس بالممكن أن يحبهما له رئيسي في سبيل هذا بعد حكيمته الصالحة  
للدين والخلافة

وإذا كان قد رأى الحكمة في استخلافه، فليس بالممكن أن يرى ذلك ثم لا يحبر  
به في هرجاء الوفاة أو بعد حجة الرداع

وإذا كان قد حبر به فليس بالممكن أن يتألب أصحابه على كتمان وصيته  
وعصيان أمره إنهم لا يريدون ذلك محضين وإيهم إن أرادوه لا يستطيعونه بين  
جماعة المسمين، وإيهم إن استطاعوه لا يحق بشأنه برهان صبر، ولو بعد  
حين

فكل أولئك ليس بإمكان، وليس بالمعقول

وإنما الممكن والمعقول هو الذي كان، وهو الحب والإيثار والتمهيد لأرائه،  
حتى يقبله المستمعون ويتهبوا له الزمان.

\* \* \*

أما العلاقة بين علي وسائر الصحابة من خلفاء وغير الخلفاء، فهي علاقة  
الزمالة المرعية والتنافس الذي ثوب إلى الصبر والتجمل والتقية

فليس فيما لديهم من الأخبار والملاحم ما يدل على أنفة حميمة بينه وبين أحد  
من الصحابة المشهورين وليس فيها كذلك ما يدل على عداوة وبغضاء بل ليس  
في أخباره جميف ما يدل على طبيعة تحقد على الناس وإن است أحيانا على  
طبيعة يحقد الناس عندها ويفرطون

فمن المعلوم أن عليا كان يرى أنه أحق بالخلافة من سابقه، وأنه لم يزل  
مدفوعا عن حقه هذا منذ انتقل إلى عليه السلام إلى الرهيق الأعلى واحتج  
المهاجرون على الأنصار في أمر الخلافة بالقراية معه صلوات الله عليه قال  
«ولما احتج المهاجرون على الأنصار يوم السقيفة برسول الله ﷺ فلهجوا»  
عليهم «إن يكن الفلج به فالحق لنا دونكم، وإن غيره فالأنصار على دعواهم».

(١) فلهجوا أي انتصروا عليهم



كذلك كان رأسه في الخلافة يوم بويج بها بصديق، ثم بويج بها لعاروق ثم بويج بها عثمان.

وحادثت قصيدة الإبراهيم بعد قصيدته الخلافة في أوائل عهد الصديق بمبادعة الفرجة بين القلوب، وأطابت العزلة بين الأصحاب وخلاصة هذه القصيدة، أن فاطمة والعباس رضى الله عنهما طلبا ميراثهما في أرض فدك وسهم خير فذكر لهم نصديق حديث لسبى عن رث الأنبياء، وبصه في روايته «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه فهو صدقة، بها يأكل آل محمد من هذا المال»

فغضب فاطمة، ولم تكلمه حتى ماتت ودفعها على بلاء، ولم يؤنس بها أب بكر. وقيل إن علياً تحلف عن لبيعة ستة أشهر إلى ما بعد وفاتها، ثم أرس إلى أبي بكر أن ائت ولا يأتنا معك أحد، وتلقاه وعند بنو هاشم، فقال «إني لم يصعب ن بداعك بـ أما بكر إكثار لفصيلت، ولا بغاسة عليك بخير ساقه الله إليك، ولكننا كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حقا فاستبددتم به علينا»

ومع هذا التبعين الرسخ عنده في حقه وحق غيره، يرجع إلى سيرته وحادثته قدرى ولا ريب أنها أقن ما تشعر به النفس الإنسانية في هذه الحالة من البقرة والبقعة، ولا يجد في حظه ومساجلاته التي ذكر فيها الخلفاء السابقين كلمة تستعرب من مثله أو يتحاوَر بها حد الحجة التي تنهض بحقه بل انفرج أب لرم هذا الحد ولم يتحاوَره لى حمحة غصب بقلب معها يواسر اللسان، ولو جاوزه لكان عاذروه أصدق من لائمه!!

• • •

وقد أعمى أسلافه لثلاثة برأيه وعمله وجاملهم مجامعة الكريم بمساكنه ومقله ولم يبد منه قط ما يتم على كراهية وضعف مكتوم ولكنه كان يألف أن يبكر هذه الكراهية إذا رمى بها كما يأنف العير الكريم وفي ذلك يقول من خطاب إلى معاوية «ذكرت يطانى عن الخلفاء وحسدى إياهم والبعى عليهم، فأما البعى فمعاد الله أن يكون، وأما الكراهية بهم فوالله ما أعقتر لبأس من ذلك»

وأولى ، يقال إن دلائل وفائه في حياتهم وبعد دهابهم، كذب ظهر من دلائل حفاؤه فإنه حنص بن أبي بكر محمدا وكفه بالربعة ورشحه للولادة حتى حسب عليه واطلب الأئسة باستفاده من أحله، وقد سمى ثلاثة من أبناءه بأسماء الطفاء الدين سبقوه، وهم أبو بكر، وعمر، وعثمان..

ويخطئ جدا من يتخذ فتواه من مقتل الهرمزان دليلا على كراهيته لعمر أو نفعه منه في أسائه فقد أسرع عبيد الله بن عمر إلى الهرمزان، فقتله انتقام لأبيه، ولم ينتظر حكم ولي الأمر فيه ولا أن تقوم الجبهة القاطعة عليه فلما استعنى في هذه القضية اعنى بالعصا من منه، ولم يعير رأيه حين تعير رأي عثمان، فأعفه من جريرة عمله لأنه هو الرأي الذي استمره من حكم الشريعة كما اعتقده وتحرره وبهذا الرأي بان قاتله عبد الرحمن بن ملجم، فأوصى وكرر الوصاية إلا بقتلو أحبا غيره لمظنة المشاركة بينه وبين رفقاته في اتنازع عليه

وانك لن تجد إسماء أعرف بالعهد، ولا أصون له ممن يتذكره في حومة الحرب، ويرى أن التذكير به سرع السلاح من الأيدي، ويعود بالخصمين المتفحزين إلى الصعاء والإخاء.

فما حارب على عدوا له سابقة مودة به إلا أن يذكره بتلك السابقة ويسبحه بالصدقة الأولى فيها على العداوة الحاضرة

ومن ذلك موقفه مع الربير وطلحة في وقعة الجمل، وهم ملحدان في حربه وإنكار بدعته

فخرج جاسرا لا يحمي يدرع ولا سلاح، ويأدى

بازير، أخرج إلى فخرج إليه شاككا في سلاح، وسمعت السيدة عائشة تصحّت وأحرياه إذ كان خصم على مفصيا عليه ناسوت كأنما ما كان حظه من الشجاعة والخيرة بالنضال

فلما تقابل على بازير اعصف، وعاد على يسأله «ويحك يربير ما الذي خرجك؟»

قال «دم عثمان»

قال: «أقتل الله أولاً بدم غشائي»

وجعز يذكره عهود وعهود رسول الله، ومنها مقالة النبي «والله ستفائك  
وأنت له ظالم»

فاستغفر الربير وقال: «لو ذكرت ما خرجت»

\* \* \*

وما وقف على حثة طلحة بكى آخر بكاء، وجعز يمسح التراب عن وجهه  
وهو يقول «عزير على أن أراك أبا محمد محمداً تحت نجوم السماء» ويتمى لو  
قبضه الله قبل هذا اليوم معشرين سنة

والسودة عند فارس كسى عهد محفوظ وموثق مذكور، إن هاتهما أن تكون حنان  
قلب أو ألفة شعور

ويخيل إليما أنه لم يرق قط صداقه الألفاء الذين يرعاهم ويرعونه لأنه يحبهم  
ويحبونه، ولكنه عامل أساس وعاملوه على سته العهود وديدن القروسية فلم ترق  
بينه وبينهم إيماءة إلى سلاح معد أو سلاح مشهور.

ومثل على لا يرق صداقة الألفاء، لأنه من أصحاب العرب التي تعرى  
بالمباينة أو بالحسد ولا تحميها المصافح ولا المسابرة والعدارة

فهو شجاع، عالم، بليغ، زكى موصول النسب بأعرق الأرومات، فإن لم يحسد  
هذا، فمن يحسد؟

وان حسد فما الذي يعز عن عرب حاسديه؟ وما اندى بهم مني القصص  
في عدائه والتأليب عليه؟

إنهم يستبعدون يومه في الإمارة والسلطان، وإذا استقروا يومه في الإمارة  
والسلطان فلا مطمع لهم في النفع على يده وهو قوام بانقسط على الأموال  
والحقوق، فمصدبه إن من منهم نصيب المحسود الذي لا رجاء له في هوانة من  
حاسديه، وليس أحقد من الناس على صاحب عظمة لم يطعوا في نفعه ولم يرأوا  
على طمع في النفع من خصومه، ولييته بهم أكبر وأدعى حين لا يصطنع الدهر  
ولا يبعد معهم إلى لختن والروغن. وعلى أنه لو دامنهم وراوغهم لما اعتقروا له

دب العطمة النى لا تحميها حمايه من طمع أو نكاية أو كما قال الحكيم الفرسى  
«إِنْ نَسِيَ أَنَّهُ أَسَدٌ لَمْ يَسِرُوا أَنَّهُمْ كِلَابٌ»

\* \* \*

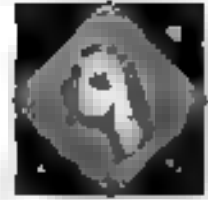
وهكذا فرّصت على الرجل العظيم صريبة العطمة الغريبة فى ديارها وبين أهلها  
وأنصارها..

والعلاقة بينه وبين كرام لصحابه، كانت علاقة الزمانة التى يدوب فيها  
الواحد سائب الألفه

والعلاقة بينه وبين الخصوم، كانت علاقة حسد غير مكثوف ويعص غير  
مكثوم..

والعلاقة بينه وبين سود العامة، كانت علاقة غرياء يجهلونه ولا يفتنون إلى  
لبابه، وإن قاربه أناس معجبين، وياعده أناس باقرين  
وتلك أيضا آية الشهيد.

\* \* \*



## ثقافته

السنة الخلق أقلام الحق.

كلمة سائغة ليس أصدق منها إن صدقت، وهي صدق في كثير من الأحيان ونحن نعلم صدقها الأصيل حين نسمع بكلمه من هذه الكلمات التي سقلها لسان عن لسان وينقلها حين عن حيل، فيحيل إلينا أنها خاطر عابر يسمع ويستمتع ويشفع له القدم فيقبله كرامة له كما تقبل السمين والعبد أحياء من رقاد المشيب، ولكنه بعد كل هذا لا يتثبت على النقد ولا يصير على مراعاة العلم والقياس، ثم نعرضه انعاقاً على العلم والقياس فإذا به قد احتس من النقد انعسير ما لبست تحتمله وراء العلماء وفصايا الحكماء، وإذا باخطأ في هذه العقولة اشأته أو في هذا اللقب لمرنجل أقل من كل خطأ يحصى على كلام مضوق

من هذه الألقاب الشائعة، لقب الإمام الذي خُص به على بن جميع الخلفاء الراشدين، والذي يطلق إن أُطلق فلا يصرف إلى أحد غيره بين جميع الأئمة الذين وسموا بهذه اسمة من سابقه ولاحقه

ويم وليس هو بقرء في الإمامة بجملة معانيها؟

ألم يكن الصديق إمام كعلي؟ ألم يكن الفاروق إمام كعلي؟ ألم يكن عثمان إماماً كعلي؟ ألم يكونوا خلفاء راشدين إذا قصدت الخلافة الرشده بعد النبوه؟

بلى كانوا أئمة مثله، وسبقوه في الإمامة.

ولكن الإمامة يومئذ كانت وحدها في ميدان الحكم بغير حارح ولا شريك ولم يكتب لأحد منهم أن يحمل علم الإمامة ليناصر به علم ادويه لديوية، ولا أن يتحير بعسكر يقابله عسكر، وصفة تدونها صفة، ولا أن يصبح رمزا للخلافة بعترى بها ولا يعترى بشيء غيرها فكلهم إمام حيث لا أشباه ولا التباس، ولكن الإمام بغير تعقيب ولا تدويل هو الإمام كلما وقع الاشتناء والالتباس.

وذاك هو عليُّ بن أبي طالب، كما لقبه الناس وحرى لقبه على الألسنة.. فعرفوه  
به الصقل وهو يسمع أماريحه المفعومة في الطرقات، بغير حاجة إلى تسمية أو  
تعريف

• • •

وخاصة أخرى من خواص الإمامة، يعرف بها عليُّ ولا يحاربه فيها إمام  
غيره وهي اتصاله بكل مذهب من مذاهب الفرق الإسلامية منذ وجدت في صدر  
الإسلام فهو سني هذه الفرق أو قطبها الذي تدور عليه. وبدرت فرقه في الإسلام  
لم يكن عيُّ معلف لها منذ نشأتها أو لم يكن موضوعا لها ومحورا لباحثها،  
تقول فيه وترد على قائلين.

وقد اتصلت الحلقات بيده وبين عمماء الكلام والنوحيد، كما اتصلت الحلقات  
بيده وبين علماء الفقه والشرعية، وعلماء الأدب والبلاغة، فهو أسناد هؤلاء  
جميعا بالسند الموصول..

أما الفرق التي جعلته موضوعا لها ومحورا لباحثها، فحسبك أن تذكر  
الخورج والروافض والشيعة والباصير وأهل السنة فتكون قد ذكرت جميع  
الفرق الإسلامية بلا استثناء أو باستثناء جد يسير

هما تشبك الفروع وتتأشب الأسمانين، فترى الفرقة الواحد مزيج من  
التصوف والسياسة، كالباطنية على اختلافها وقد تتراعى بها الفروع حتى  
نصل إلى انقائين يمدح أئباب أو مذهب السهاء، وهم طرف مقطوع أو موصول،  
من بعض تلك الأصول.

والإمام أحق لقب به، وهو أحق الأئمة بلقب الإمام.

وقد كانت له من أيات الشهاد في كثير من صغاته، وكثير من معارض  
حياته، وطوارئ أوقاته..

وكانت له في الإمامة آية أخرى من هذه الأيات.

فأية الشهاد أسهم يبخسون حقهم في الحياة، ثم يعطون فوق حقهم بعد

المصات

و هم يعرضون لنا عذائب الدنيا في إفعالها وإسارها، كما قبل الإمام رضى الله عنه «إنها إذا أدبرت عن إنسان سبقته محاسن نفسه، وإذا أقبلت عليه عارته محاسن غيره».

وكذلك اتفق للإمام فى صفة لإمامة، كما اتفق له فى معظم لصفات  
فقر أن سمعنا بعلم من العلوم الإسلامية أو العلوم القديمة لم ينسب إليه، وقل  
أن تحدث الناس بعرض لم يخلوه إياه، وقل أن توحه النداء بالعلم إلى أحد من  
الأوائل إلا كانت له مساهمة فيه

نحوه ديوانا من الشعر فيه عشرات من القصائد، وليس بينها إلا عشر من  
الآيات تصح نسبتها إليه.

ونحوه عما سموه علم «الحفر» ورعوا أنه علم النجوم والأزياج الذى يكشف  
عن حوادث الغيب إلى آخر الزمان

ونحوه مقامات تخلو من أشيع الحروف فى الكلمات وهو حرف الألف، ولا يعقل  
أن تظهر أشباه هذه المقامات قبل عصر الصناعة فى أيام العباسيين وما تلاها.

ونحوه من مصطلحات علم الكلام أقوالا لم نعرف ولا يعقل أن نعرف قبل  
ترجمة المفردات الإعرابية بها من غرائب البحث والاشتقاق

وبعض ما نحوه يريد قدره ويرفعه شأنا ألا تصح نسبتها إليه ١

وبعض ما يعى له غير مستحوى فيه ولا مختلف عليه كاف لتعظيم قدره  
وإثبات إمامته فى عصره، وبعد عصره

وعند أن رضى الله عنه كان يصمم لشعر ويحسن النظر فيه وكان ثقه  
لشعراء بقد عليم بصير، يعرف جدلاف مذاهب اقوى واختلاف وجود المقابلة  
والنقصيل على حسب المذاهب، ومن بصره بوجه المقابلة بينهم أنه سئ «من  
أسعر الناس؟» قال «إن القوم لم يجرؤا فى حلقة يعرف الغاية عند قصبتها فإن  
كان ولايد فالملك الضليل»

وهذا فيما يعتد أى تقسيم لمقاييس الشعر على حسب «المدارس» والأعراض  
الشعرية بين العرب فلا تكون المقابلة إلا بين أشباه وأمثال ولا يكون اتعميم  
بالنقصيل إلا على التعليب

لكنه رضى الله عنه لم يبرق ملكة الإحادة في شعره، والنبي عليه السلام يرى ذلك حيث سأله أن يأذن لعلي في هجاء المشركين فقال «ليس بذلك» وأحالهم إلى حسان بن ثابت، ونسب له من بيصره بمثالب النعم

وكل شعره الذي رجحت بسببه إني من قبيل هذه الأبيات التي وصف بها قبيلة همدان في ربيعة صفين

ولما رأيت أخين ترحم بالقب	موارسها حمر البحر دوام
وأعرض بقم في السماء كأنه	عجاجة دهن ملبس بقم
وبدى ابن همدان الكلاع وحير	وكبدة في لحم وحى جدام
تيممت همدان أنذين هم هم	إذا مات دهر جنتى وسهامى
مجاوسى من حين همدان عصية	موارس من همدان غير لئام
فحاصوا الظاف واستطاروا شرارها	وكادوا بدى الهيجا كشر بدام
فلو كنت رهوباً على باب جنة	نقلت لهمدان ادخلوا سلام

أو من قبيل هذه الأبيات.

محمد النبي أخى وصهوى	وحمزة سيد الشهداء عصى
رجعر الندى يمسى ويصبحى	يطير مع الملائكة ابن أمى
رعت محمد سكى وعرسى	مبود حمها بدمى ولحمى
وسيط أحمد ولداى نذها	فألهكم لى سبهم كسهمى
سبقتكم إلى الإسلام طروا	صغيرا ما بلغت أوان حلمى
وصبيب الصلاة وكنت مرء	ممن ذا يدعى يوم كيومى

وقد نظم شعرا ولا ريب، كم يدل سؤا لهم النبي عليه السلام أن يأذن له في هجاء من هجأهم، ولم ينسب إليه شعر، صرح أولم يصح أحود مما قدمناه وليس فيه ما يسلكه بين المحودين من الشعراء، أو يلحق يطيقته بين الكتاب والخطباء



أما كتب الحفر أو علم الحفر، فالقول الفصل فيه أقرب من القول الفصل في جميع ما يحويه وأصافوا إليه فحتم على من تقواه وفضله، لا يستعمل بعلم مرعوم هو اسحر القديم بعينه، وليس هو مما يليق بورعه ولا مكانه وقد نهى وشدد النهى عن تعلم النجوم واستطلاع الغيب مما مثل هذه العلوم، ومن لمحقق أدنى لا خفة فيه من الشك عدوا أن سيوء ابتى جاءت في نهج البلاعة عن الحجاج بن يوسف وقتله الربيع ودارات التتار وما إليها هي من مدخول الكلام عليه، ومما أضافه بسياح إلى انكتاب بعد وقوع تلك الحوادث بمر من قصير أو طويل.

ولا نجزم مثل هذا الحرم في أمر المهمات التي خلت من بعض الحروف، لأن العجز لا يمنعها قطعاً كما يمنع استطلاع الغيب المفصل من أرياج النجوم، وكما يستبعد حداً أن تكون هذه المقامات من كلام الإمام لاختلاف الأسلوب واختلاف الزمن، وحاجة النسبة هنا إلى سد أقوى من لسد الميسر لما بكثير

وكذلك يستبعد أنه قال لكاتبه سيظهر عنه بغريب اللغة «ألصق روائع بالحبوب وخذ المزهر بشاترك واجعل خندورتك إلى قيهلى حتى لا أنفى بدة إلا أودعتها بحماسة حلحلاتك»

أي «ألصق مقعدك بالأرض وخذ القلم بب بين أصابعك واحسن عيذك إلى وجهى حتى لا ألفظ بلفظة إلا وعينها في سواد قلبك»

فإن الولع بإظهار العلم بالغريب بدعة لم تعرف في صدر الإسلام، ولم يلتفت الناس إلى ادعائها لا بعد استعحام العرب وسيرة العارفين

ومثل هذا ما نسبوه إليه حيث رعموا أنه قال «ما تو بعليص قط» أي ما شربت اللبن يوم الأربعاء و «ما تسبتمكت قط» أي ما أكلت اسمك يوم السبت «وما تسرولقعت قط» أي ما لبست السراويل قائما إلى أشباه هذه المختوعات التي تستغرب لفظاً ومعنى وعتقاداً من رجل كالإمام في صدر الإسلام

غير أننا نسقطها جميعاً فلا يسقط بها فصلاً ترحح به موارين الإمام في حساب الثقافة بل بحسبها فصلاً بر شئنا ويسقطها قيدى نه بعدها السهم الراجح في تلك الموازين.

تبقى به الهداية الأولى في التوحيد الإسلامي، والقضاء الإسلامي، والعقيدة الإسلامية وعم النحو العربي، وفي الكتابة العربية مما يحوز لها من سمعة أساس صالح لموسوعة المعارف الإسلامية في جميع العصور، أو يحوز لها من سمعة موسوعة المعارف الإسلامية كلها في الصدر الأول من الإسلام.

ونبقى له مع هذا مرائد الحكمة التي تسجل له في ثقافة الأمة الإسلامية على بابين العصور

في كتاب بهج البلاغة، عيص من آيات التوحيد والحكمة الإلهية تتسع به دراسة كل مشغل للعقائد وأصور الدأله وحكمة التوحيد

وربما تشكك الباحث في بسطة بعضها إلى الإمام عليه الصيغة الفلسفية عليها وامتزجها بالأراء والمصطلحات التي اقتبس بعد ذلك من ترجمة الكتب الإغريقية والأعمية ولا سيما الكلام على الأضداد والطوائع والعدم والحدود والصفات والموصوفات ولكن أدى بقرؤه الباحث ولا يشك في بسطة إلى الإمام أو في جوار نسبه إليه، قسط واف لتحقيق رأي لقائلين بسبق الإمام في مصراع علم الكلام، وعتراف معترفين له بالأستادية الرشيدة لكل من يحق به من أصحاب الأراء والمقولات وهو على جمته خير ما يعرف به المؤمن ربه وينزهه الخالق في كماله، ومن أمثلته قوله «الحمد لله الذي لم يسبق له حار حار لا يكون أولاً قس أن يكون آخر، ويكون طاهراً قبل أن يكون باطناً، كل مسمى بالوحدة غيره قليل، وكل عزيز غيره دلس، وكل قوى غيره ضعيف، وكل ماله غيره مملوك، وكل عالم غيره مقعلم، وكل قاهر غيره يفدر ويعجز، وكل صميم غيره يصم عن لطيف الأصوات، ويصم كبرها، ويذهب عنه ما بعد عنها، وكل بصير غيره يعمى عن خفي الألوان ولطيف الأحسام، وكل ظاهر غيره باطن وكل باطن غيره ظاهر، لم يخلق ما خلقه لتشديد سلطان ولا بحوف من عواقب رما ولا استعانة على من ساور ولا شريك مكاث، ولا صد مفاقر، ولكن خلأق مريبون وعباد بأخرون - أي ضارعون - لم يحلل في الأشياء فعال هوقها كائن، ولم يسأ عنها حقان هو منها يائي، لم يؤده خلق ما ابتداء ولا تدبير مادراً، ولا وقف به عجز عما خلق، ولا ولحت عليه شبهة فيما مضى وشر، بل قضاء متفق، وعلم محكم وأمر مبرم.»

أما القصص والفقه، فالمشهور عنه أنه كان أقصى أهل زمانه وأعلمهم بنفسه  
والشريعة أو لم يكن بينهم من هو أقصى منه وأفقه وأقدر على إخراج الأحكام  
من القرآن والحديث والعرف المأثور. وكان عمر بن الخطاب يقول كلما استعظم  
مسألة من مسائل القصص العويصة قصية ولا يا حسن لها لأنه كان في هذه  
امسائل يتحول التفسير إلى التشريع كلما وجب الاجتهاد بالرأي الصائب  
والقياس الصحيح .

وفي أخباره ما يدل على عظم أدوات الفقه كعلمه بصورته وأحكامه. ومن  
هذه الأدوات علم لحساب الذي كانت معرفته به أكثر من معرفة فقهه يتصرف في  
معضلات المواريث، لأنه كان سريع الفطنة إلى حيله التي كانت تعد في ذلك  
الرمي الغارزا تكذ في حلها العقول، فيقال إن امرأة حاءت إليه وشكت إليه أن  
أخوها مات عن ستمائة دينار، ولم يقسم لها من ميراثه غير دينار واحد. فقال  
لها لعله ترك زوجة وابنتين وأماً واثنى عشر أخاً وأنت؟ فكان كما قال

وسئل يوماً في أثناء الخطبة عن ميت ترك زوجة وأبوين وبنتين فأجاب من  
موره صار ثمنها تسعاً وسميت هذه الفريضة بالفريضة المديونية، لأنه أفتى به  
وهو على منبر الكوفة

وفي هذه الإجابات، دليل على الدكاء وسرعة البديهة، فضلاً عن الدلالة  
الظاهرة على العلم بالمواريث والحساب

وإذا قيل في قصصه إنه لم يكن أقصى منه بين أهل زمانه، صبح أن يقارن في  
علم النحو إنه لم يكن أحد أوفر سهماً في إنشاء هذا العلم من سهمه وقد توانوا أن  
أبى الأسود الدؤالي شكاً إليه شيوع اللحن على ألسنة العرب، فقال له اكتب ما ألقى  
عليك، ثم أملاه أصولاً منها إن كلام العرب يتركب من اسم وفعل وحرف، فالاسم  
ما أبأ عن المسمى، والفعل ما أبأ عن حركة المسمى، والحرف ما أبأ عن معنى  
ليس باسم ولا فعل. وإن الأشياء ثلاثة صاهر، ومصمر، وشيء ليس بظاهر ولا  
مصمر. وإنما تتفاوت العلماء في معرفة ما ليس بظاهر ولا مصمر. يعني اسم  
الإشارة على قول بعض النحاة، ثم قال لأبى الأسود اصبح هذا النحو ياأبا الأسود  
فعرّف العلم باسم النحو من يومها

وهذه رواية تخالفها روايات شتى تستند إلى المقابلة بين اللغات الأخرى في اشتقاق أصولها المحوية، ولا سيما السريانية واليونانية. ولكن الروايات العربية لا تنتهي بها إلى مصدر أرجح من هذا المصدر وغيرها من الروايات الأحبية والعروض العلمية لا يصح عقلا أن يكون الإمام أول من استنبط الأصول الأولى لعلم البحر العربي من مذاكرة العلماء بهذه الأصول بين أبناء الأمم التي تعيش الكوفة وخواضر العراق والشام، وهم هناك غير قليل، ولا سيما السريان الذين سبقوا إلى تدوين نحوهم، وفيه مشابهة كبيرة لبحر اللغة العربية

وليس لإمام عليّ أول من كتب الرسائل، وألقى العظات، وأطار الخطب على المنابر في الأمة الإسلامية

ولكنه ولأرب أول من عالم هذه الفنون معالجة أدب، وأول من أصفى عليها صيغة الإنشاء الذي يقتدى به في الأساليب لأن الذين سبقوه كانوا يصوغون كلامهم صياغة مبالغين لاصياغة مشثين ويقصدون إلى أداء ما أرادوه ولا يقصدون إلى فن لأداء وصداغة التعبير ولكن لإمام عينا نعم انكناية صغيرا ودرس الكلام السليح من روايات الأسس وتدوين الأوراق، وانظر بالبلاغة حتى خرجت من طور البداهة الأولى إلى طور التفنن والتجويد فاستقام له أسلوب مطبوع مصبوع، هو فيما نرى أول أساليب الإنشاء انعم في اللغة العربية، وأول أسلوب ظهر فيه آثار دراسة انقراء والاستفادة من قدوته وسبقه، وتأتى له بسليقته الأدبية أن يتخذ من محاولة الهدوء ومن تهذيب الحضارة، ومن أفسط التفكير البعيد الذي أبدعته المعرفة الدينية والثقافة الإسلامية فديوانه الذي سعى «بهج لبلاغة» حق ديوان بهذه التسمية بين كتب العربية، واشتماله على جزء مشكوك فيه لا يمع اشتماله على جزء صحيح النسبة إليه صحيح ادلانه على أسلوبه، وربما كانت دلالة الأخلاق والمزاج فيه أقوى وأقرب إلى الإقناع من دلالة الأساليب التاريخية، لأن طابع «الشخصية العلوية» فيه ظاهر من وراء انسطور ومن ثناب الحروف، يوحى إليك حينما وعيته أنك تسمع الإمام ولا تسمع أحدا غير الإمام، ويعر عليك أن تلمح فيه عربة بين صاحب التاريخ وصاحب الكلام

على أنها مبالغ ما يبالغ في منحىص المنحول وغير المنحول من أقوال الإمام ومن دون ثقافته العامة، ثم تبقى لنا بهية نسمح لنا أن نوحى عليها أن نسال، كيف يتسنى العلم بهذا لأى كان من الدس في مثل ذلك الرمال؟

والسؤال لا بد منه، ولا بظن قاربا من قراء تاريخ الإمام لم يخطر هذا السؤال بباليه ولم يرد على نفسه.

ولكن لا بد معه من تصحيح لباعث عليه لتصبح الحواب عنه بعد ذلك.

فالباعث عليه أبداً ما بلغ في تحرير البداوة العربية من ابصالات المعقولة بالثقافة العالمية، سواء كانت من ثقافة العلم والدرس أو ثقافة التواتر والتلفين.

بكن البداوة لم تكن في الواقع معرولة عن ثقافة الأمم المحيطة بها تلك المعزلة التي تحطرت لنا للوهلة الأولى بعد كانت على اتصال بعقائد الهند وفارس والروم، وكانت لمعارف الإنسانية أشعتها التي تتخلل الحرية العربية من قديم العصور وحسبنا من أمثلة ذلك، مثل واحد من مدسك الإمام نفسه يعنى عن الأمثلة من قبيله

وذلك هو مثال عبد الله بن سبأ المشهور بابن السوداء، وهو يهودى ابن ربحيه مولود في بلاد اليمن ومذهبه الذي اشتهر به هو مذهب الرحمة الذي يجمع فيه بين قول ايهود يظهر المنقذ من أبناء داود وقول غيرهم بظهور الإله الذي يتقمص جسم إنسان، وقول النصارى بظهور المسيح، وقول أهل فارس بتعديس لأوصياءه من أقرباء الملوك والأمراء.

فهذه عقيدة لا تظهر من رجل يسمى من أهل تحريرها إذا تحيلت إلى الحرية في حصاراتها أو بداوتها بمعزل عن ثقافات الهند والفرس والروم وبني إسرائيل، وأن الأمة العربية تخلص من أساس سمعو بالعقائد والفلسفات من طريق القدوة الدينية أو طريق المحاكاة الاجتماعية أو طريق الدراسة والسماع.

وقد كانت عاصمة الإمام في الكوفة وكانت مئانة انغادين وارانحين من أبناء الحضارات المعروفة في العالم بأسره، ومن المسلمين الذين عاشوا بها أو بجوارها ليس كمن ينظرون في كتب الفرس ويعجبون بحكمها كما جاء في سيرة عمر بن الخطاب ومنهم من كان ينظر في النجوم على طريقة الفرس والروم، وحدث بعض هؤلاء الإمام أن يسير إلى حرب الخوارج في طالع كوكب من الكواكب المحسوسة فقال له «أترغم أنك تهدي إلى الساعة التي من سار فيها صرف عنه السوء؟» فمن صدق بهذا فقد كثر الفرائ، واستعفى عن الاستعانة بالله في بين المحبوب ودفع المكروه»

• • •

ثم أقبل على أساس بالصريح والموعظة، فاذلاً «إياكم وتعلم اسحوم. إلا ما يهتدى به في أر بحر فإياها سعو إلى الكهنة، والسبح كالكاها والكاها كالساحر، والساحر كالكاها، والكاها في لمار»

وهذا لبت على بن أبي طالب رهاء ثلاثين سنة مقطوعاً أو يكاد ينقص من جهاد الحكم والسياسة، متفرعاً أو يكاد يتفرغ لعلوم البحث والدراسة يتأهل كل ما سمع، ويراجع كل ما قرأ، ويعرف كل ما يعرف ممن يلقاه، ويستطلع آباءه وآراءه وقضاياها فمهما يكن قسط الثقافة العالمية قليلاً في بلاد الإسلام على تلك الأيام، وفيه ولا ريب لكفاية للعقل اليقظان ولبصيرة الراعية أن تفهم ماقد مهمة الإمام، وأن يثبت ما أنبته بهج البلاغة من لحوطر والأحكام

• • •

على أن هذه الفنون من الثقافة - أو حصها - إنما تعظم بالقياس إلى عصرها والجهود التي بذلت في بدايتها

محصة الإمام من علم النحو - مثلاً - عظيمة لأن الابتداء بها أصعب من تحصيل المحدثات الصحاح التي دونها الحياة بعد تقدم العلم وتكاثر الباطرين فيه

وهكذا يقال في الحساب والمسائل العلمية التي من قبيله، فلا يحور لنا أن نقيسها بمقياس العصر الحاضر وهي في ابتدائها أصعب حداثتها في أطوارها التي لحقت بها بعد ثمانها واستعاضة البحث فيها

أما فن الثقافة الذي يقاس بمقياس كل زمن، فإذا هو عظيم في جميع هذه المقاييس، قليل الفوارق بين البدايات منه والنهايات، فذلك هو فن الكلام الجامعة أو فرائد الحكمة التي قلنا أنها إنما تسحر له في ثقافة الأمم بحكمة كما تسجل له في ثقافة الأمة الإسلامية، على تباين العصور

فالكلم الحو مع التي روي للإمام طرار لا يفوقه طرار في حكمة السلوك على أساليب الأمثال السائرة

وقد قال النبي عليه لسلام «علماء أمتي كأبياء بني إسرائيل»

فهذا الحديث الشريف اصدق ما يكون على الإمام على في حكمته التي تقارن بحكم أولئك الأنبياء...

فهى من طراز الحكم الماثورة عن أشهر أولئك الأنبياء بالمثل اسائر وهو سليمان بن داود.

ويريد عندها أنها أبدع في التعبير، وأوفر نصيبا من دوق الجمال كقوله مثلا «نفس المرء خطاه إلى أجل» أو قوله «من يعطى نال من القصيرة يعطى باليد الطويلة» أو قوله «المرء مخنوء تحت لسانه» أو قوله «الحلم عشيقة» أو قوله «من لا عوده كثفت أعصابه» أو قوله «كل وعاء يصيق بما حفر فيه إلا وعاء العلم فإنه يتسع» إلى أشباه هذه التعبيرات الحسان التي نحاها فيها أى مراتها أفصح وأقوم صدق المعنى أو بلاغة الأداء، أو جودة الصنعة

وبعض أقواله ينصح يدلائل «الشخصية» التي تلام صاحب الفنى الاصيل، فمثل ما معانيه لباسا من خولج نفسه وأحداث زمانه، كما قال «صواب الراى بالدول يقبل بإقبالها ويذهب بدهابها» أو كما قال «ما أكثر لحبر وفن الاعتيان» أو كما قال «شاركوا الدى أقبل عليه اسرق فنه أخلق للعنى وأحضر بإقبال احظ عليه» أو كما قال «إذا هبت أمرا فقع فيه، فإن شدة توفيه عظم مما تحاب منه» أو كما قال «لا بقم أمر الله سبحانه إلا من لا يصارع ولا يصارع ولا يتبع لمطامع».

وله عدا هذه الحكم التي تلتبت بألوان نفسه أو ألوان زمانه، حكم كثيرة تصدر من كل قائل يقدر عليها ويتخذ إلى كل سامع يعرض لها كقوله «كل معدود منقص وكل متوقع أت» وقوله «إذا كثرت القدرة قلت الشهوة» أو قوله «أفصل لأعمال ما أكرهت نفسك عليه» أو قوله «من نصب نفسه للناس إماما، فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره» ويكن تأديبه بسيرته قدر تأديبه بلسانه، ومعلم نفسه ومردبها أحق بالإحلال من معلم الناس ومؤدبهم» أو قوله «الفقيه كل نفقيه من لم يعط الناس من رحمة الله ولم يؤنسهم من روح الله ولم يؤنسهم من مكر الله» أو قوله «قيحة كل امرئ ما يحسنه» أو قوله «الحاقل يصنع الشىء ما أصعبه» أو قوله «الصبر صبران» «صبر على ما تكره، وصبر على ما تحب» أو قوله «من ملك استأثر» أو قوله «الناس أعداء ما جهلوا» أو قوله «القراية إلى المودة أحوح من المودة إلى لقراية»

• • •

وله في المواضع المرتحلة كلمات هي أشبه الكلمات بأسلوب الحكمة السائرة فلما خرج وحده لبعض المومنين تردد فيها ابصاره فابوا له بشيرون إلى أعدائه «بأمر المؤمنين نحن مكفبكم» فقال «ما تكفونى أنفسكم فكيف تكفونى غيركم؟» إن كانت الرعايا قبلى لتشكو حيف رعيتها وإلى اليوم لأسكو حيف رعيتى، كأننى المقرد وهم العادة، أو الموزرع وهم الورع»

ورثى محمد بن أبى بكر حين يلعه مقتله على إحدى أصحاب معاوية فقال «إن حزنا عليه قدر سرورهم به، إلا أنهم نقصوا بعيننا ونقصا حبيبنا»

هكل نمط من أنماط كلامه، شاهد له بالملكة الموهوبة فى قدرة لوعى وقدره التعبير. فهو ولاشك من أبناء آدم الذين علموا الأساء وأوتوا الحكمة وفصل الخطاب

وقد أخطأ «موير» MOYER المؤرخ الإنجليزى حين قال إن عبنا حكيم كسليمان، وهو مثله حكيمته لغيره يعنى أنه يصح الناس ولا ينتفع بالصحة، فإن «موير» أحصى أن يفرق بين عمل الإنسان بصحته وبين انتفاعه بصحة ولاشك أن عبنا كان من العاملين بما يقولون ومن المنتصحين بما ينصح به أساس. أم أنه ينتفع بحكيمته، فالطبيب لا يقدح فى علمه أنه قد أعماه علاج نفسه بصره فقد يكون الاخفاق من استعصاء الداء لا من صحة الدواء

ولا يفوتنا أن بعض هذه «نصائح» قد نسب إلى قائلة من الأوثى غير الإمام رضى الله عنه، وهذا يستلزم مرة أخرى إلى الصحيح والمحول من كلام الإمام الذى جمعه الشريف الرضى فى «نهج البلاغة» وفرغ من جمعه بعد مقتله برهاء أربعة قرون، وهو بصير يخرج من موضوع هذا الكتاب إلى دراسة أدبية ليست من أغراضنا الخاصة فى لتعريف بعقريية الإمام فحسبنا أن أسلوب الإمام معروف فى بعض ما ثبت له من رسائله وخطبه، وإن طابع هذا الأسلوب شائع فى بعض انكتاب لا تنقد فيه كلمة ظهيرة التلويق هنا أو كلمة ظاهرة الاقدام هناك، أو كلمات يقع فيها الالتباس لاختلاف الصناعة أو اختلاف التفكير فمحزن لا نحصى أن نرى فى هذه الخطب والرسائل والأمثال وحدة تتصل حينا، وتنقطع حين، كابوحدية التى تراها بغير انقطاع فى كتب الحافظ وابن المقفع وعبد الحميد وهذه الوحدة وحدها معبىة لنا على تبين ثقافة الإمام،



أو تذوق أسلوبه الذي لا نخطئ فيه مرة حراسة البادية وصفه الحاضرة وحسن  
الدهاء وامتزاج الصناعة بالصنع الذي لا تكلف فيه

ولا يتم القول في ثقافة الامام على رضى اليه عنه، ما لم نعلمه بالفوق في  
نصيبه من الثقافة العسكرية أو فن الحرب، الذي هو مصماره لأول ومماط  
شهرته لتي تجرر فيها صفة الشجاعة قبل كل صفة، وكفاءة الماخص قبل كل  
كفاءة

فجمة ما يقال في هذا الصدد، أن من الإمام العسكري هو من البطل المغوار  
يماصل الأفران وينزع الجيش الذي هو فيه يقوده الشجاعة وإكفاء الحماسة  
وتعزيز الثقة بين صفوفه، وأنه يعرف كيف يكون الهجوم حيث يجب الهجوم،  
وكيف يحتار على عدوه بما يحط قلبه ويفت في عصبه ومن حيله المشهورة في  
توهين عزم عدوه، أنه أمر بعقر انجمن في الوقعة المعروفة باسمه، لأنه كان علم  
القوم الذين كانوا يلتفون به ويثبثون بثبوتهم.

وهذا كله في لبطل المغوار الذي يفرق لعسكريين بينه وبين خطط القيادة  
وفنون التعبئة وتحريك الجيوش.

ولم يرد لنا من أبناء الإمام في هذا الباب ما يحكم به على قيادته العسكرية  
بهذا الاعتبار

نعم إنه كان يقسم جيشه إلى مبنية وميسرة وقلب وطلعية ومؤخرة، وأشياء  
ذلك من التقسيمات التي جرى عليها في وقعة صفين على لتخصيص

وكانت له وصاياه المحفوظة في تسيير الجيوش وتدريب الجند ومعاملتهم  
لسكان البلاد ومنها قوله: «إذا برلتم العدو أو برز بكم، فليكن معسكركم من قير  
الأشراف وسفاح الحال، أو أثناء الأنهار، كيف يكون لكم رداء وديونكم ردى  
ولتكنز مهاثلتكم من وحه واحد أو اثنين، واحطوا لكم رقباء في صاخصي الجبل  
ومناكب الهضاب، لنلا بأبيكم العدو من مكان مخافة أو امن، واعلموا أن مقدمة  
القوم عيوبهم، وعيون المقدمة صلائعهم وإياكم والتفرق فإذا برزتم عدلو  
جميعاً وبادا ارتحلتم فارتحلوا جميعاً وإيا عشكم البيل فاجعلوا الرماح كفه أي  
محيطه بكم - ولا تذوقوا النوم إلا غمراً أو مصمصه»

ومنها قوله: «ولا تسر أول الليل فمن الله جعله سكناً وقدره مقام لا ضعف»  
 ومنها قوله لبؤلة: «بني سبرت حبوا هي مآره بكم ان شاء الله، وقد أوصيتهم  
 بما يجب لله عليهم من كف الأذى وصرف الشدى، وأنا أبرأ إليكم وإلى دمتكم من  
 معرفة لحيش إلا من جوعة المصطر لا يجد عنها مذهب إلى شعبه هتكوا من تدول  
 منهم شيئا ظلما عن ظلمهم، وكفو أبدى سفهائكم عن مصرتهم وانعرض لهم»  
 وهذه وما هو من عيولها، مناهج موروثة أو أدب هو أقرب إلى نظام الإدارة منه  
 إلى خطط التبعية وقيادة الميدان.

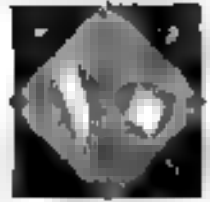
وعلى كونه قد اتبع هذه التقسيمات والمناهج هي وحدة صفين، ثم تكن الوقعة  
 كلها إلا صاويشات هجوم ودفع بين طوائف متعرفة على أوقات منباعدة كأنها  
 ضرب آخر من ضرب من الحرب على طريقة العارس المناض والبص المفرد هي  
 موقف المبارزة أو في عصار الصقوف

\* \* \*

وبخلاصة ذلك كله، أن ثقافة الإسماع هي ثقافة العلم المفرد والقيمة العالية بين  
 أجهلهم في كل مقام

وبها هي ثقافة العارس المحاهد في سبيل الله، يد ول بين القلم والسيف  
 وينشأه في الجهاد يأسه وتقواه لأنه باليأس زاهد في الدنيا مقبل على الله  
 وبالتقوى زاهد في الدنيا مقبل على الله

فهو فارس يتلاقى في الشجاعة بيبه وسيده، وهو عالم يتلاقى في الدين  
 والدنيا بحدثه وبجواه



## فى بيتـه

خلاصة رأى الإمام فى المرأة أنها «شر كلها وشر ما فيها أنه لا بد منها».

كان يرى بها قصاص خاصة تليق بها غير لقصائل التى تليق بالرجل ويحمد منه «فخيار قصاص النساء شرر قصاص الرجال الزهو، والحبس، والمخز، وإذا كانت المرأة مزهوة لم تمكن من نفسها، وإذا كانت بخيلة حفضت مالها وما بعها وإذا كانت حباة فرقت من كل شىء يعرض لها».

والإمام صائر إلى رأى هذا فى امرأة من كلنا طريفيه، وهما طريق الحكيم الذى يصر إليها على سنة الحكمة القديمه، وطريق العابد الذى ينظر إليها على سنة العبد فى جميع لعصور. ولكنه لا رأى الحكيم ولا حس العابد قد حبيه قط عن مطرته العالبة عليه، وهى مطرة انقارص المطبوع على آدب الفروسية ومنها التلطف بالمرأة والصفع عن عدوانها. فما انتقم قط من امرأة لأنها أساءت إليه، ولا عقل قط عن الوصية بها فى موطن يستدعى هذه الوصية ومن أمثلة وصاياه فى هذا المعنى خطبته بين جنوده قبل لقاء العدو بصفين، حيث يقول:

«لا يهجو النساء سوى وإن شتمن أعراضكم وسبين أمراءكم، فإنهن ضعيفات القوى والأنفس والاعقوب، إن كنا لنؤمر بالكف عنهن وإنهن لمشركات، وإن كان الرجل ليتناول المرأة فى انكاهية بالعهر - أى الحجر - أو الهراوة فيعير بها وعقبه من بعده...»

ومد كانت ميوله نحو المرأة قوية كما يظهر من غير حادث واحد. ومن ذلك صبية السبى التى استولى عليها وبنى بها لساعتها، وجعلها قسمه من الخمس قبل تفسيحه. رأى بعض أصحابه فى ذلك ما شكوه إلى النبى عليه السلام من أخله، وربما كان هذا سبب تحديره منها فى الغزوات خيفه على الحيش من شواغلها، فكان يقول لسراياه وحبوشه إذا شعها «اعريوا عن النساء ما استطعتم» ويوصى فى امثال هذه المواضع باجتنابها.

غير أنه كان يرى على ما يظهر أن امرأة تغى عن سائر النساء، فلم يعرف له هوى لامرأة خاصة من سائرته غير الهوى الذى اختص به السيدة فاطمة رضى الله عنها.

كرامه لمزلتها عمده ومزلمها عند أنبيها وهو غير الهوى الذى تبعثه المرأة  
بمغريات حسنها

كان حاسب فى أصحابه، فمرت بهم امرأة حميلة، فرماها القوم بأبصارهم  
فقال رضى الله عنه: «إن أبصار هذه الفحوص طوامج، وإن ذلك سبب هياحها، فإذا  
نظر أحدكم إلى امرأة تعجبه قليلا من أهلها، فبئس هي امرأة كامراه».

وعلى لحمة، يمكن أن يقار إن آراء الإمام فى المرأة هى خلاصة الحكمة  
القديمة كلها فى شأن النساء

هه سر لابد منه يانهاق آراء الأقدمين سواء منهم حكماء الهند واليونان أو  
الحكماء الذين نظروا إلى المرأة بعين الدين من أبناء بنى إسرائيل وأباء الكنيسة  
المسيحية وأئمة الإسلام

لأنهم كانوا حمينا بمزحوبها بالشهرات لقي تأثيرها عائدة أو غير عائدة، ويهود  
عليها تبعة لشور لى تنحم عنها بعكثها أو على البرعم منها، ولم تعبر هذه النظرة  
بعض التعبير إلا فى لأزمه الحديثه التى نظرت فى استقلال التبعات على أساس «الحرية  
الشخصية». فحاسبت المرأة بما تحبب وأوسكت أن تباع فى تبرنتها من حداثتها

فص السهو عن لحقيقه، أن تتحد آراء الأقدمين هى امرأة دليلا على بصيبتهم  
من العبطة أو السكينة فى حياتهم ببيتية لأبنا خلقاء أن بحسبهم حميما من  
الاشقاء المعديين فى بيوتهم، رهو ما تأباه الهداهة وتأياه أبااء التاريخ عن  
كثير من الأزواج والزوحات النابهات.

وليس من الالرم فى حياة الإمام خاصة، أن يستمد آراءه فى امرأة من حياته  
ابيقية فقد كانت تحاربه فى الحياة العامة مددا لا ينفد لهذه الآراء التى شعت  
بين الأقدمين حتى أوشكت ألا تندج إلى تحربة مكررة، وشاءت المفادير أن  
سقضى حياة الإمام على والمرأه يد فى الفصاء عليها، فكانت حياته الغالية مهرا  
لقطام القى عال فيها ابن أبى مياس المرادى

ولم أر مهرا سافه در سماحة	كمهر قطام من مصيح وأعجم
ثلاثه الاف وعيد وقينه	وصرب على باحسام امسم
علا مهر أعلى من على وإن علا	ولا فتك لا دون فتك أبى ملحم

والذي يجرم به مؤرخ الإمام أن حياته البيتية خلت من شكاة لم يألفها الأزواج في زمانه وأنها كانت على أحسن ما وصفت به الحياة الزوجية بين أمثاله

عاش مع فاضلة رضى الله عنهما، لا يقرن بها زوجة أخرى حتى ماتت بعد موت أبي عليه السلام بستة أشهر. وهي رعاة لها ورعاية لمقام أبيها لاسك فيها. فقد كان النبي عليه السلام كما جاء في الأثر يعار لبداته غيره شديدة، وروى عنه أنه قال وهو على المنبر مرة «إن بني هشام بن المعيرة استأذنوني في أن يسكروا ابنهم عسى بن أبي طالب، فلا أدن، ثم لا أدن، ثم لا أدن إلا أن يريد على بن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنهم فإنها بصعة منى يريبنى ما رابها ويؤدينى ما آذاها»

ربما كان من وفائه لها عضيه لعصها، فأحجم عن مباينة أبي بكر إلى ما بعد وفاته على بعض الروايات، وحرره كما حرره هذه حياتها وقد ولدت له أشهر بنيه وبناته الحسن، والحسين ومحسن، وأم كلثوم، وريث، وماتت ولم تبلغ الثلاثين

وتزوج بعدها تسع نساء رزق منهن أبناء وبنات يختلف في عددهم المؤرخون، ويؤخذ من إحصائهم في «الرياض النضرة» للمحب الطبري أنه رضى الله عنه وافر الحظ من الذرية، بقي منهم بعده كثيرون.

وكان عسى ما يفهم من خلائقه، ومن سيرته وأخباره، أب سمحا يستريح الأبناء إلى عطفه، ويجترئون على مساجلته الرأي في خطر ما يدويه من لأحداث الحسم لما توجه طلحة والزبير نحو العراق، ومعهما السيدة عائشة رضى الله عنها، جاءه ابنه الحسن بعد صلاة الصبح فقال له «قد أمرتك فعصيتني، فتقتل عدا بعصية لا بأس لك عنها» فسأله «وما الذي أمرتك فعصيتك؟» قال «أمرتك يوم أحيط بعثمان رضى الله عنه أن تخرج من المدينة فيقتل ولست بها، ثم أمرتك يوم قتل ألا تباع حتى تأتلك ونور العرب وبيعة أهل كل مصر. فإنهم لن يقطعوا أمرا دونك فأبيت». ثم أمرتك حين مع هذان الرجلان ما فعلا أن تحسن في بيتك حتى يصطالحا فإن كان انفساد كان على يدي غيرك، فعصيتني في ذلك كله».

فلم يألف أن يساجبه الرأي ليقبعه، وجعل يقرر له «أى نبي! أما قولك لو خرجت من المدينة حين أحيط بعثمان فوالله لقد أحيط بك كما أحيط به، وأما قوتك لا تباع حتى تأتي بيعة الأمصار فإن الأمر أمر أهل المدينة وكرهت أن يصيب هذا الأمر،

وإما هؤلاء حين خرج طلحة والزبير على ذلك كان وهما على أهل لإسلام وأب هودك  
أجلس في بيتك فكيف لي بما قد لرمي؟ ومن مرسى" أتريد أن أكون مثل نصيم  
التي بحاط بها ويقال دباب دباب بسبب هذا حتى يجر عرقها ثم تخرج وإذا لم  
انصر فيم لرمي من الأعر ويعيسى، فمن ينظر فيه فكيف عنك أي يسي.

وهذه معاصرة «أخوة» تستعرب في لأجيان «خاصة» التي كان للأبوة فيها  
على البين سيادة تقرب من سيادة المولى على الرقيق، ولا يعصها أنه لطم  
الحسن يوم لأنه ظن به تفصيلا في الدعا عن عثمان. فقلت سورة الغضب في  
موقف من أندر المواقف التي لا يقس عليها في سائر الأحوال.

وكان رضى الله عنه يرهه أن يحيط به أبؤه في محافل لرؤع ومشاهد  
الرخوف. فخرج إليها وهم حاقون به عن يمينه وشماله، ومنهم من يحمل اللواء  
بين يديه، وذلك زهو الشجاع بمحور بأشباله الشجعان.

واشتهر بالعطف على صفارهم، كما اشتهر بمودة كبارهم، فكان أحب شيء  
إليه أن يداعبهم أو يرى من يداعبهم، وكانت له طفلة ذكبة ولدتها له روضة من  
بني كلب يخرج بها إلى المسجد ويسره أن يسألها أصحابه من أخوات؟ فحجب  
«وه» «وه» محاكاة لعواء الكلاب.

وكان يقول «إن للوالد على الولد حقا، وإن للولد على الوالد حق» حتى الوالد  
على الولد أن يطيعه في كل شيء إلا في معصية الله سبحانه. وحق الولد على  
الوالد أن يحسن اسمه ويحسن أدبه ويعلمه القرآن.

ومن إحسان التسمية أنه هم بتسمية ابنه حرب لأنه يرشحه للجهاد وهو  
أشرف صناعاته، لولا أن رضى الله سبحانه الحسن، وهو أحسن محبى على هذا  
الاختيار في تسمية أخويه الحسين والمحسن. وأنتم حق أبنائه في إحسان  
أسمائهم، فاختار لهم أسماء النبي وأسلافه من الخلفاء أبي بكر، وعمر، وعثمان  
أم معيشتهم في بيته بين زوجاته وأبنته، فمعينة الزهد والكفاف وأحر ما يقال  
فيها به كان ينفق له أن يطلع لنفسه، وأن يأكل الحبز اليابس الذي يكسره على ركبته،  
وأن يلبس أرداء لدى يرعد فيه، وأن أحدا من رعاياه لم يمت عن نصيب أقل من النصيب  
الذي مات عنه وهو خليفة المسلمين. وكان الحلقة يوم كانت الخلافة تنافس ملك  
اندبنا فكأن بينه تقبض القصر الذي تعرض الدنيا اسملوكة بين أركانه وزواياه.

## صورة مجملة

من كلمات الإمام التي لم يقلها أحد غيره كلمته في خطاب الدنيا حيث يقول:  
«يا دنيا غري غري.. غري غري».

وانها لأكثر من كلمة، وأكثر من دعاء..

إنها لسان قدر، وعنوان حياة..

فقد خلق الإمام، وفي كل خليفة من خلائقه الكبار اجترأ على الدنيا، على  
ضرب من ضروب الاجترأ..

خلق شجاعاً بالغاً في الشجاعة، وزاهداً عظيم الزهد، ودارساً محباً للحقيقة  
الدينية يتحرأها حيث اهتدى إليها..

والشجاع جرىء على الدنيا لأنه لا يبالي الحياة..

والزاهد جرىء على الدنيا لأنه لا يبالي النعيم..

وطالب الحقيقة جرىء على الدنيا لأنها طريق عنده إلى غاية من ورائها..

فأى مصير لهذا الرجل غير الشهادة في زمن لم يعرف بطارئ من الطوارئ،  
كما عرف بالإقبال على الدنيا؟..

صام الناس قبله عن الدنيا، ثم أقبلوا على الدنيا العريضة بحذافيرها..

هدأت حماسة الدعوة النبوية، وثابت الطبائع إلى مألوفها الذي أشرجت عليه،  
وتدفقت الأموال من الأمصار المفتوحة على بحر لم تعهده الجزيرة العربية قط في  
تاريخها

وأقبل الناس على الدنيا، بل هروا إلى الدنيا..

وإذا بخليفة جرىء عليها زاهد فيها، يقف لهم في طريقها ويصدهم عنها..  
يصد ماذا؟..

يصد الطوفان، وهو متدفع من وراء السدود..

يصد الطبيعة الإنسانية، وهي منطلقة من عقال التقوى

يصد ما لا سبيل إلى صده بحال..

فهو مستشهد لا محالة ولو مات على سرير.. فإن الإنسان قد يعيش عيشة الشهداء ولا يلزم بعد ذلك أن يموت ميتة الشهداء..

وقد لزمته آية الشهادة في كل قسمة كتبت له، وكل حركة سعى إليها أو سعت إليه.. فمن آيات الشهادة أن يساق إلى الخلافة، ولا حيلة له في اجتنابها..

ومن آيات الشهادة أن يساق إليها في ساعة الفصل بينها وبين الملك، وتقوم الحوائل كلها بينه وبينها قبل الأوان..

ومن آيات الشهادة أن يساق إليها، ولا حيلة له في تحقيق أغراضها ولا في الخروج من مأزقها..

ومن آيات الشهادة أن يبغى بأنصاره أشد من بليته بأعدائه، ولا حيلة في تبديل أولئك الأنصار..

ومن آيات الشهادة ألا تغره الدنيا، وقد غرت حوله كل إنسان.. فهو شهيد، شهيد، شهيد..

خرج إلى الدنيا والشهادة مكتوبة على جبينه، وخرج منها والشهادة مكتوبة على ذلك الجبين بضرورة حسام..

وصورته المجلدة لا تنشق على مصور ولا على متفرس، لأنها صورة المجاهد في سبيل الله بيده وقلبه وعقله، أن صرورة للشهيد..

وكل امتحان لقدرته أو لعمل من أعماله، يتبغى أن ينعزل عن محنة القدر التي لا يغلّبها غالب..

وقد كان له رأي عالم، وفطنة حكيم، ومشورة مدبر.. ولكننا إذا قلنا إنه أخفق في العمل لأنه لم يغلّب القدر، فذلك تكليف بما لا يطاق.

وإنما نقول إنه أخفق في العمل ونمسه، ولعله لو تولى الخلافة قبلها أو تولى الملك بعدها لما ظهر منه ذلك الإخفاق..

\* \* \*



وحيث يخفق الآخرون  
لنصيبهم الأقدار في مثل مكانه.

ومات وقد حل مشكلة الخلافة بلسانه، وهو إلى اليوم موضع الخلاف عليها  
وعليه بين أصحاب المذاهب وأصحاب الأقوال في التاريخ.

فقد كان يود لو أن رسول الله استخلفه من بعده، ولكنه لم يطلب إليه ذلك... ولا  
رأى من الحكمة أن يطلبه إليه. قال ابن عباس ورسول الله في مرض الوفاة:  
«أذهب إلى رسول الله، فسله فيمن يكون هذا الأمر.. فإن كان فينا علمنا ذلك، وإن  
كان في غيرنا أمر به فأوصى بنا».. قال: «والله لئن سألتها رسول الله  
فمنعتها لا يعطيناها الناس أبدا.. والله لا أسأله رسول الله أبدا»..

آمن الإمام بحكمة الرسول إيمان محبة وتصديق، ولكنه لم يفارق الدنيا حتى  
كان قد آمن بها إيمان تعليم وتطبيق. فلما سأله: «أنبايع الحسن؟» قال: «لا أمركم  
ولا أنهاكم» فأنصف الذين سبقوه ولم يفرضوا على الناس استخلافه، لأنهم رأوا  
في موقفه منها مثل ما رأوه في موقف الحسن ابنه، على حكم سوام..

\* \* \*

أي ختام أشبه بهذا الشهيد المنصف من هذا الختام..

لقد ولد كما علمنا في الكعبة، وضرب كما علمنا في المسجد.. فأية بداية  
ونهاية أشبه بالحياة التي بينهما من تلك البداية وتلك النهاية..

\* \* \*

## فهرس الكتاب

٣	نقـــــــيم .....
٧	١- صفاته .....
١٩	٢- مفتاح شخصيته .....
٢٣	٣- إسلامه .....
٢٩	٤- عصر الإمام .....
٣٩	٥- البيعة .....
٧١	٦- سياسته .....
٩٧	٧- حكومته .....
١٠٥	٨- النبي والإمام والصحابة .....
١١٣	٩- ثقافته .....
١٢٧	١٠- في بيته .....
١٣١	صورة مجملة .....